إبراهيم نصر الله

أحوال الجزائر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

REPRESENTATIONS OF GENERAL . IBRAHIM NASRALLAH

إبراهيم نصرالله
أحوال الجنرال

مختارات

إبراهيم نصرالله

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.
مكتبة كل شيء

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ISBN: 978-614-421-535-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233
لوحة الغلاف: تفصيل من لوحة للفنان فاتح المدرّس
تصميم الغلاف: الفنان محمد نصر الله

ـ أحوال الجنرال

فروسيّة الجنرال

أيها العسكريّ

هيئْ لنا السرجَ.. والصَّولجانَ

الرِّكابَ.. العِنانَ.. الرّدى والزِّنادْ

كي نمتطي هؤلاء العبادْ!!

وجبـة الجنرال

أيها العسكريّ

.. هيئْ لنا قُبَّرةْ

لندوسَ على صوتِها

وهيئ لنا عاشقةْ

لنُرَمِّلَ أبيضَ فستانِها

وهيئْ لنا طفلةً

لنُيَتِّمَ أجملَ ألعابِها!

جولة الجنرال

أيها العسكريُّ

تخفَّيتُ هذا المساءَ وباغتُّ قاعَ المدينةْ

فأبصرتُ أغنيةً تتسكّعُ واثقةً!!

رجلاً ضاحكاً!!

فَلِمَنْ أيها العسكريُّ بنَينا السّجونَ اللعينةْ؟!!

أزمة الجنرال

أيها العسكريُّ

معادلةُ السجن جِدُّ غريبةْ!

هنا الصَحَراءُ

كلابُ الحراسةِ.. وحشةُ ذئبِ الفلاةِ

وخطوةُ موتٍ قريبةْ

ولكنني قد رأيتُ السَّجينَ يغني هنا..

والسجونَ كئيبةْ!!

حفلة طرب على شرف الجنرال

أيها العسكريُّ

مزيداً من الدَّمِ والطّعناتْ

أينَ نيرانُ سوطكْ؟

أين حِنكتُنا في انتزاعِ الحياةْ؟!

وصية الطابور الصباحي

: صمتُ الرّيحِ وعودْ

انتبهوا

نورُ الفجرِ جحودْ

انتبهوا

نحنُ حُماةُ قيودْ

عَلَّمَنا الجنرالُ.. وأوصى:

الداخلُ مفقودْ!

والخارجُ مفقودْ!

سياحة الجنرال الداخلية

– هذي هي الأشجارُ والمقاعدُ

الشوارعُ المضاءةُ.. الحضارةُ.. الحدائقُ.. الغيومُ

قامةُ الجبالِ.. والقرنفلةْ

هذي اندفاعةُ النهارِ ههنا

قيثارةٌ.. أغنيةٌ..

حَنْجرةٌ فيها الصّهيل والمدى.. والسّنبلةْ

وهذه نوافذٌ للرّوحِ

أبوابٌ على الدنيا.. سماءٌ مذهلةْ

وهذه أوطاننا.. أحلامُنا المسترسِلَةْ

لكنها كما أمرتم سيدي.. جميعها مُكَبَّلَةْ!

كابوس الجنرال

أيها العسكريُّ

صرختُ.. صحوتُ

وبي فَزَعٌ وارتجافٌ وحُمّى

حلمتُ بوردةْ!!

تشقُّ الفضاءَ هنا تحت رأسي

وتنمو ببطءٍ

وتكبرُ.. تكبرُ.. عبرَ المخدَّةْ!!

حلم الجنرال

أيها العسكريُّ

حلمتُ بدبابةٍ تتمرَّغُ كالكلبِ قربي

فرقَّ لها

وهو دوماً يرقُّ ويخضرُّ قلبي

ولما تصاعدَ ضوءُ النهارِ.. تذكَّرتُ ربي!

فأطعمتُها فَرِحَاً نصفَ شعبي!

حديد

حديدٌ نوافذُ هذي السجونِ وأسوارُها العاليةْ

حديد هي العرباتُ.. البنادقُ

والحاجزُ العسكريُّ.. الطغاةُ

حديدٌ هو القيدُ.. ناقلةُ الجُندِ

والخنجرُ.. الطعنةُ الدّامية

عيونُ المحقِّقِ والشّرطيِّ

الشعارُ.. النياشينُ والأحذيةْ

عبوسُ الزّنازين والأقبيةْ

وأضحكُ حين أَمرُّ بهم

وكلُّ الذي في يدي أُغنيةْ!!

1987

ـ أغنية للحياة

لربما يقالُ بعدَ حينْ:
قد جفَّتِ الأنهارْ
وإن زهرَ الدَّمِّ في عروقِنا ما كانْ
وإن طيرَ الحُلْمِ في قاماتِنا لا يشبهُ الرجالْ
لا يشبهُ الجبالَ حين تعتلي شواهدَ الوديانْ
لربما يقالُ: كانَ موتُنا الفراغَ والصّدى
وكلُّنا النسيانْ
لربما يقالُ: لا مدى!
وأُغنياتُ الحبِّ في موالنا
لا لم تكنْ يدا
لربما يقالُ: كانَ يومُنا ارتحالَنا
وثورةُ الأطفالِ فسحةً
ولم تكنْ غدا
لربما يقالْ
لربما يقالْ

***

سأستعيرُ من غصونِ اللّوزِ خُضرةَ البلادْ
وأستعيرُ من جذوعِ النّخلِ ساريةْ
وأستعيرُ من غناءِ الطيرِ في الغاباتِ وردةً
ومن سفوحِ الشمسِ مهرةً
وساحلاً.. وبرتقالاً.. قِمَماً.. وأوديةْ
وأسألُ الفضاءْ:
هل كانتِ النجومُ قبلَ هذا الدمِّ عاليةْ؟!!
وأسأل الأولادَ.. والغزلانَ.. والقطوفَ الدّانيةْ
وأسأل العشاقَ في شوارعِ الرصاصِ
في الخلاصِ

في اشتعال الأغنيةْ:
هل كانتِ السماءُ قبل هذا الحُلْم صافيةْ؟
***
في ليلةِ الدماءِ يَسألُ البحريُّ عن عذابهِ
عن شارعٍ مضى ولا يعودْ
عن كلّ شيءٍ يشبهُ الحدودْ
ويشبهُ الهواءْ
في ليلةِ الدّماءِ
نذكرُ الدّماءَ وحدَها
فأيُّ ذاكرهْ؟!
تلكَ التي تنامُ في انفجارِنا
وتسكنُ الحقائبَ المسافرةْ
تلكَ التي تتسلُّ خفيةً للصمتِ
بعدَ فصلِ المجزرةْ
وتُبصرُ القتلى.. تفاصيلَ الجراحِ.. الخوفَ..
ظلَّ الموت في الدّخانْ
لكنها لا تُبصر المجنزرةْ!
كأننا عُدنا من السراب والغياب فجأةً
ولم تكنْ أشلاؤُنا إقامةَ المؤامرةْ!
.....
ففجأةً نكونْ!
وفجأةً نودِّع القيودْ!
وفجأةً لا نرهبُ الجنودْ!
وفجأةً نطاولُ السماءْ!
وفجأةً أخصب من شتاءْ!
وفجأةً يسكننا الورديّ.
وفجأةً لا ينحني المخيمْ
في قبضةِ الشّرطيّ!

كأننا حكايةْ
كأنها حكايةْ
والدَّمَ والأشلاءَ لعبةٌ
والبحرَ أُسطورةْ
كأن بيروتَ التي نحبُّها
بيروتُ كانت لعبةً
ومجدُنا صورَةْ!
***
لربما يقالُ.. ما يقالْ
وتغرقُ الصّحافةْ
في الوحلِ والبكاءِ
أو تُستنطقُ العرَّافةْ!
ما لونُ هذا الدّمّ يا معبودةَ الخرافةْ؟!
لربما يقالُ.. ما يقالْ
ويقطرُ الخجلْ
من صخرةِ الموتِ الكبيرِ
من نوافذِ الطيورِ في اندفاعةِ المسافةْ
ويسقطُ الصفصافُ كالقاماتِ.. والبنادقِ المزيَّفةْ
لربما يقالُ: أنتِ الآنَ خائفةْ
وإن ثوبَك الشعبيّ يفضحُ التفاحْ
ويفضحُ الفَراشَ.. والأضواءَ.. والخيولَ..
والغضبْ
وإننا مساحةُ النسيانِ في التّعبْ!
لربما يقالُ إننا ابتدأنا
وإننا انتهينا
وإننا احتراقُ هذا الضوءْ
وإننا اللاشيءْ
.....

فليُزهر الكرزْ
وليزهر الفولاذُ
والمياهْ
وليزهر اللهبْ
ولتتركي شباكَنا للشمسِ والأبناءْ
لعاشقٍ يمرُّ في الخفاءْ
ويقطف العنبْ
غُرّتُكِ النعناعُ والريحانْ
وصوتُكِ البريُّ حِكمةُ السُّحبْ
إذ تقلعُ الصخورَ
أو تُفجِّرُ الغناءَ في الجراح والقصبْ
وصدرك التألّقُ.. التآلفُ.. الفضيُّ.. والناريُّ..
والمددْ
ومنزلٌ يجيءُ كلّما
إجتاحَنا بلدْ
***
بإسمها نغني
وباسمها نموتْ
وباسمها نُعمِّرُ الأزهارَ والبيوتْ
***
فلينهضِ الدمارْ
لا لم تكن لفارسِ الغبارْ
لا لم تكنْ لغيرِ زهر النارْ
لا لم تكنْ لغيرنا
زهورُها في كلّ أرضِ اللهْ
في (القدس).. في قرى (الصّعيدِ).. في (وهرانْ)
في ساعدٍ يستلُّ منجلاً
ويحصدُ الفاشستَ في (بيسانْ)

في لونِ موجِ البحرِ.. في سنبلةِ الزمانْ
في عاملِ التبغِ الجنوبيِّ..
وفي عمالِ عكا
في عيونِ الطيرِ.. أو صوت الكمانْ
في كلّ أرضٍ أزهرتْ
وما وراءَ الماءْ
تصاعدتْ وأكملتْ أُنشودةَ الإنسانْ
لا لا تنامي الآنْ
ما انحلَّ زهوُ العمرِ حتى تسقطَ الأغصانْ
ولا هوتْ سماؤنا في سُحُبِ الدّخانْ
.....
الحلمُ: حُلْمُها
نوافذُ السماءِ: إسمُها
احتفالُ كوكبٍ بضوئهِ: انتصارُها
تفتُّحُ النّوّارِ في مزارعِ الخضارِ: مجدُها
ميلادُ شاعرٍ وطائرٍ: كتابُها
تفجُّرُ الينبوعِ في الصحراءِ: همسُها
ها كلُّ شيءٍ بيننا مشاغبٌ.. وواضحٌ.. وجارحٌ..
والشمسُ سرّها
– تَغيّر الكثيرْ؟!
– أجل..
قد كبروا..
أطفالنا!!
نحنُ ابتكرْنا سقفَهم
لكنهمْ..
لا يكبرونَ الآنَ في ظلالِنا
***
لربما يقالُ: كانتْ جمرةً

لكنّها كغيرها تموتْ
كطلقةِ الميلادِ في تابوتْ!
لربما يقالُ.. ما يقالْ:
سيهْرمُ الورديُّ في البناتِ
والبحريُّ في الرّجالْ
اللوزُ في أصابعِ الصغارِ
والبروقُ في التلالْ
أيتها الجناحُ
والصباحْ
والوردةُ النبيَّهْ
أيتها الحريةْ
لربما يقالُ.. ما يقالْ
فالآنَ يكثرُ النُّعاةُ والأعرابْ
وتكثرُ الأوطانْ
وتستفزُّ روحَنا المدنْ
كأن كلّ خربةٍ في هذهِ الصحراءِ
وحدها الوطنْ!
وهذه البنادقَ الدماءَ: غربةٌ وخارج الزمنْ!
الآنَ يكثرُ النُّعاةُ.. والأعرابُ.. تسقطُ الظلالُ..
يفتحُ البكاءُ شارعاً.. وتفتحُ السكينُ جثةً..
وتزدهي العروشْ
وحينما يرفعُ طفلٌ رايةً في ساحةِ الإعدامِ
تبدأُ السّجونُ زحفَها
وتُعلنُ استنفارَها الجيوشْ!

***

الآنَ نستطيعُ أن نقولَ حينما يجيئنا رصاصهُمْ:
تَفتُّحُ الأزهارِ.. ضدُّهم
غناءُ طائرٍ على شبّاك عاشقٍ.. مواتُهمْ

والنهرُ عندما يميلُ باتجاه عشبةٍ منسيةٍ.. ذبولُهم
الآنَ نستطيعُ أن نقول للصغارْ
لا تتركوا الساحاتِ للدمارْ
قوموا العبوا
فجرأةُ النوّارِ في احتفالكْم هذا الصباحَ:
رعبُهمْ
وكلُّ شيءٍ يشبهُ الحياةَ في ارتفاعِكمْ:
سقوطُهمْ

ـ الحوار الأخير
قبل مقتل العصفور بدقائق

إلى الشهداء: جمال قبلان، مجدي أبو جامع، صبحي أبو جامع، ومحمد بركة

في نيسان من عام 1984 قام أربعة من الفدائيين باختطاف حافلة إسرائيلية وتوجّهوا بها من (عسقلان) إلى (رفح) وهم من مجموعة (جيفارا غزة). وقد طالب الفدائيون بإطلاق سراح عدد من زملائهم في السجون الإسرائيلية.

– تدور القصيدة في الحافلة العربية التي تتوجّه بهم من (غزة) إلى (عسقلان)، أما الجزء الثاني فيدور داخل الحافلة الإسرائيلية (المخطوفة) المتوجّهة إلى رفح.

– قالت امرأة إسرائيلية إنهم تحدّثوا عن السلام؛ وكانت أعمارهم موزّعة بين السابعة عشرة والعشرين، وقاموا بإنزال امرأة إسرائيلية حامل من الحافلة.

– قامت القوات الصهيونية باقتحام الحافلة حيث أُستشهد اثنان من الفدائيين وأُسر الاثنان الآخران، وما لبثت القوات الصهيونية –بعد دقائق من أسرهما– أن قامت بقتلهما بواسطة الهراوات.

– قالت أمهات الشهداء إن الصهاينة قاموا باقتلاع أعين الأسيرين قبل استشهادهما. وقد أثبتت التحقيقات التي استمرت أكثر من عشر سنوات أن ما حدث كان أفدح.

– في نيسان 1985 أي بعد مرور سنة، تمت مكافأة الضابط إسحق مردخاي الذي أشرف على عملية قتل الشهيدين بترقيته إلى رتبة (لواء).

– أجرت صحيفة حداشوت الإسرائيلية استطلاعا للرأي طرحت فيه السؤال التالي: قَتْلُ الفلسطينيين اللذين اشتركا في خطف الحافلة هو أمرٌ:

– خطير ويبعث على القلق.

– يتعارض مع القانون.

– يقبله المنطق.

وكانت نتيجة الاستطلاع أن 84.4% من الذين وجّه إليهم السؤال أجابوا بأنه أمر يقبله المنطق.

– ظل إسحق مردخاي يتقدّم في الجيش إلى أن أصبح وزيراً للحرب في الكيان الصهيوني.

هادئٌ بحرُ غزةَ
ماءٌ وأشرعةٌ

زرقةٌ وصباحٌ عريضٌ
ونافذةٌ للنوارسِ أو جدْوَلٌ في الوريدْ
هادئٌ بحر غزةَ
لي رغبةٌ: أن أرى وجهَ أُمي ومدرستي
وأن أقفَ الآنَ في الصفِّ طفلاً وأُطلقَ في البرّ خيلَ النشيدْ
وبي رغبةٌ أن أمرّ على وردةٍ في الجوارِ
أُسرُّ لها أن أرضَ المخيمِ حقلٌ وهذا الرّحيلُ البعيدْ
لستُ أمضي إلى الموتِ مبتسماً
بينَ هذي الرصاصةِ والشمسِ أرفعُ أُغنيةً رايةً للحياةْ
أُحبُّ الصغارَ كثيراً
وإن لمْ أكنْ ذاتَ يومٍ هناكَ صغيراً يُلاحقُ سرَّ الأعاصيرِ
والموجِ حينَ تثورُ المياهْ
كلُّ أسئلتي انتشرتْ فيّ موجاً
فقدْ يبسَ الغصنُ
لكنّ أسئلتي اكتملتْ واستوتْ برتقالاً
وأغنيتي تعرفُ الدربَ للحبِّ
تعجبُ؟
لا بأسَ
لكنني أعرفُ البحرَ منذُ صباه
طاعنٌ في الزّغاريد والعرسِ.. والشمسِ..
هذا أنا
وجبينٌ إلهْ
لا أقول لكَ الآنَ إني سأمضي إلى الموتِ
لا أعشقُ الموتَ
لكنّه سُلَّمي للحياةْ

***

هادئٌ بحرُ غزةَ
هذا الصباحُ أليفٌ وأطيبُ مما شربناهُ

لا وردَ في الطرقاتِ
أجلْ
ولكنّ وردتَنا الأغنياتْ
وهنا باعةُ السمكِ.. الطالباتُ.. الحوانيتُ..
آخرُ فصل الشتاءْ
صِبْيَةٌ يحبسونَ النوارس في الدفترِ المدرسيِّ
ويندفعونَ طيوراً إلى الماءْ
فأسٌ على كتفٍ.. عنبٌ في الشفاهِ.. وأشرعةٌ..
حين تعلو... ستسألُ:
هل أُبصِرُ الآنَ أشرعةً أم سماءْ؟!
حناجرُ مُخْضَرَّةٌ.. وخضارٌ..
حقولٌ تجيءُ إلى السوقِ ناضجةً بالغناءْ
هادئٌ بحرُ غزةَ
هذي البيوتُ التي تسكنُ الرّوحَ تشبهني
خطوةُ الضوءِ.. ألفتُهُ.. وضجيجُ المحطاتِ، تشبهني
غيمةٌ تحملُ الأرضَ حتى النجومِ
وبيارةُ البرتقالِ.. الحدائقُ، تشبهني
حزنُ جدي.. حكاياتُهُ.. ويداهُ.. عروقُ أبي
وجهُ أمي الحبيبُ.. خيولُ المعاركِ، تشبهني
جارتي.. جارُنا
طفلُهما حينما اختطفتْهُ الرّصاصةُ من عندليبِ البراءةِ
أُبصرهُ كلّ يومٍ على بابِ مدرسةٍ
عابراً زمني
وهو يشبهني
كلُّ ما يتجمَّعُ حولي وفيَّ سمائي التي ظلَّلتْ وطني

***

لا أقولُ مع القائلينَ إذا ما أتتني الرصاصةُ
وانفجرتْ في الصباحِ شظاياً وفي بدني:

ليسَ هذا الذي يعبر الدّربَ يومي.. ولا زمني
ولكنني..
ربما كنتُ أحملُ كُتْبي وأمضي إلى المدرسةْ
وأنتظرُ الباصَ في ضحكةِ المرأة المشمسةْ
ربما كنتُ أمضي إلى البحرِ
أخلعُ هذي الثيابَ
وأمضي إلى الماءِ طفلاً
على كتفي تتضاحكُ أو تصرخُ اليابسةْ!
ربما كنتُ أصطادُ بعضَ السمكْ
وأعدو إلى البرِّ
ثم أقول لقطتنا ههنا انتصبي وقفي حارِسةْ!
ثم أرجعُ ثانيةً للمياهِ
فتمسكني من يدي سمكةْ
وتحملني عنوة وهي تضحكُ:
ها قدْ تأخرتَ
هيّا بنا أيها الولدُ السّاحليُّ المشاغبُ للمدرسةْ
ربما
ربما

***

حينما يصبحُ الجندُ أكثرَ من شرفاتِ المنازلِ والياسمينْ
وأبوابِ غزّةْ
حينما يُصبحُ السّجنُ في لحظةٍ مدناً
أين تعلو نوارسُ غزّةْ
حينما يصبحُ الموتُ فاتحةً للغيومِ.. السهولِ..
وأنوار غزّةْ
يخرجُ الحبُّ نحوَ الشّوارعِ يُشعلُ أقمارَ غزّةْ

***

شارعانِ.. زقاقٌ.. وبابٌ.. دمٌ نابض كالحذَرْ

كلمةُ السرّ: (حبٌّ)
وخطتنا أن نسيرَ إلى (عسقلان) ونزرعَ فيها الشّجرْ
ونمضي إلى رفحٍ وهنالكَ نجني الثّمرْ
والهدفْ:
أن يكونَ الفضاء لهذي العصافيرِ
لا للرصاص الذي غاصَ في دمنا وانتشرْ
***
قالتْ الأرضُ يا خيليَ انتظروا
وارتدتْ شجراً.. جدولاً.. وصلاةْ
قالتْ الخيلُ يا برِّيَ انتظروا
فالشوارعُ للناسِ لا للطغاةْ
قالتْ الريحُ في أضلع الشجرةْ
حُلْمُنا باسقٌ والبروقُ خطاه
جدولٌ قالَ: أَصْحَبُكُمْ
ومعي كلّ ما خبأَتْهُ المياهْ
صلاةٌ يحاصرها الصمتُ قالتْ: وداعاً.. وداعاً
وإن لم تعودوا سأمكثُ في الأرضِ
لن أرفع الشمسَ حتى تباركَ في عتمةِ الليلِ عرشَ الإلهْ!
***
صباحٌ لأحلى الشبابْ
لغزةَ هاشم
للفجرِ يأتي عريضاً ويكبُرُ كالسّنديانِ بهذا الترابْ
صباح لأعراسنا العالياتِ كظهر الحصانْ
صباحٌ لعصفورةٍ دَرَجتْ – قبلَ أن تُشرقَ الشمسُ– فوقَ القبابْ
صباح صباحٌ لأحلى الشباب
(لجيفارا)[1]
لم يزلْ يانعاً في عيون الصبايا

ومستسلِماً لغناءِ البلابلِ.. مُحتفلاً بنجومِ الدّماءْ
ولما يزلْ في الشوارعِ يمضي غزالاً
ويمحو خطى الجندِ –بالدَّم– فوقَ الرِّمالْ
ويأتي إلى البحرِ كلّ مساءٍ نبياً
وقامتُهُ السَّروُ والاحتفالْ
غامضاً كابتسامةِ طفلٍ
فسيحاً كبيارةٍ وسؤالٍ
ومثلَ أكفِّ رعاةِ الجبالْ
كلُّ هذي البنادق تحرسُ حُلْمي
وهذي الصّدورُ تعانقُ فيّ الميادينَ والناسَ؟
تلكَ أغانيّ شمسٌ
ولمْ تكن الشمسُ ظلّا لأنمو هنالكَ بينَ الظلالْ
مجدُنا أننا حينَ نمضي إلى البحرِ
تتبعنا الخيلُ والطرقاتُ وأحلى الرّجالْ
***
هادئٌ بحرُ غزةَ
هلْ جهَّزتْ أُمُّكَ الزّادَ؟
نصفَ رغيفٍ.. وعشرينَ زيتونةً.. برتقالةْ
فالطريقُ طويلٌ إلى (عسقلان)
ركضتْ تحتَ سقفينِ
دارتْ هنالكَ في الحوشِ
سبعونَ عاماً..
ولما تزلْ طفلةً كغزالةْ!!
قُلتُ يا أُمُّ: ها عسقلانُ هنا
وهي أقرب من بابنا
– لا عليكَ إذن لا عليكْ
واسمع الآنَ ما سأقول:
إذا كَثُرَ الجنُدُ كنْ يا صغيري قوياً

وكنْ مثلَ نهدي الذي أرضعَكْ
ومثل حليبي الذي جفَّ من زمنٍ.. طيباً
ولا ترتبكْ
إن قلبي معكْ
وخبئ سلاحكَ
لا شيء أجملُ منكَ سوى وردةٍ زَيّنَتْ مدفعَكْ
لا تُطلق النارَ يا ولدي باتجاه الشجرْ
فهي أشجارُنا
وإذ تُطلق النارَ حاذرْ إذن أن تُصيبَ صغيراً
فأنكَ ما زلتَ في عين أُمكَ تعدو على طُرقاتِ الصِّغرْ
ربما غيَّرتكَ الحروبُ..
أجلْ
ولكنني أذكرُ الآنَ أنك لم تكُ يوماً تحبُّ الدماءَ
وكسَّرتَ مدفعكَ الخشبيّ مراراً هنا... أو هنا
فوقَ هذا الحجرْ
وكنتَ صديقَ البراعمِ
حتى إذا ما أتى الصيفُ صرتَ حبيبَ الثمرْ
أرضُ غزةَ يا ولدي وجهُنا
ومن طينها ندهنُ الخدَّ كي يتورّدَ يا ولدي
ونباهي القمر
هل تجهَّزتَ؟
آهِ
تقولُ تأخَّرتَ؟!
لا تتأخَّرْ كثيراً عليَّ
سأعجنُ.. أغسلُ صحنَ العجينِ
وبعضَ الثيابِ- ثيابَكَ-
أخبزُ يا ولدي..
مثلَ كلِّ نهارٍ

وحينَ يجيءُ المساءُ
سأتركُ قلبي على عتبةِ الدّارِ عيناً وأُغنيةً تنتظرْ
فكنْ مثلَ نهدي الذي أرضعكْ
ومثلَ حليبي الذي جفَّ من زمنٍ.. طيباً
ولا ترتبكْ
إنّ قلبي معكْ
***
هادئٌ بحرُ غزةَ
مستسلِمٌ للنسيمِ.. المراكبِ
مستسلمٌ لأيادي الصغارِ وأقدامهم
شاسعٌ ليقولَ لنا: إنه لم يكنْ لسوانا
ساحِلُهُ رحْمُ هذي البيوتِ
وموجاتُهُ ساحُ كلّ الرجالِ الذينَ يضيئونَ ليلَ الأزقةِ
في (الشَّجَعيَّةِ) أو في (البريْجِ)
وينتصرونَ على موتهمْ
... ...
.. كان الجنودُ يدورونَ في البحرِ والطّرقاتْ
– إلى أين تمضينَ.. أنتِ.. أَجيبي؟
وماذا هنا تحت ثوبكِ؟!
هيا أجيبي
سلاحٌ.. رسائلُ.. أَمْ ملصقاتْ؟
راحت البندقيةُ تبحثُ عن طائرِ الرحْمِ
هيا أجيبي
سلاحٌ.. رسائلُ.. أم ملصقاتْ؟
– إنني أحملُ الآنَ كلّ الحياةْ
– كلّ ما فيكِ ينبئُ أنك غامضةٌ مثلَ غزةَ في الليلِ
مزروعةٌ بالخناجرِ.. عطشانةٌ لدمائي!
تراهُ المخرّبُ هذا الذي تحتَ ثوبكِ؟!

لا.. بلْ قلْ: فدائي

***

عسقلانُ بعيدةْ!

صَدَقَتْ أمُّنا

كيف صارتْ بعيدةْ

وهْيَ في يدنا؟!

في الباصِ شيخانِ.. عمالُ مزرعةٍ.. بائعونَ

وفلاحةٌ صعدتْ في الطريقِ.. وأخرى تهدهدُ طفلاً

وطالبةٌ.. ربما

عمرها ليسَ أبعدَ من عمرهمْ

– إنها تنظرُ الآنَ نحوي، انتبهْ

– ليسَ نحوكَ!

– ماذا؟!

– قُلتُ لا.. ليس نحوكَ.. أعرفُها

مرةً جئتُها بزجاجةِ عطْرٍ وزهرةِ فُلٍّ.. وقبَّلتُها!

– أنت تكذبُ

بل تنظرُ الآنَ نحوي، انتبهْ!

وأشارتْ

فطارَ إليها فتىً

كانَ يجلسُ في مقعدٍ خلْفَهمْ!!

***

عسقلانُ بعيدةْ

لكنَّ ما قَصَّرَ الدَّربَ أنهمُ أربعةْ

اثنان منهمْ على البحرِ

والآخرانِ على البرِّ

والأزرقُ البحرُ والأخضرُ البُّر: أغنيةُ الوطن الرائعةْ

– هل جُعْتَ؟

– لا
– خذْ كسرةً.. ذاكَ أفضلُ
كي تطمئنَّ المياهُ بأنّا هنا هادئونَ
وتنشرَ أعراسَها الأشرعةْ!
***
إنها تخرجُ الآنَ
ها عسقلانْ
انتبه جيداً
وكنْ يقظاً دائماً كغزالْ
فغزّةُ من خلفنا صعدتْ لأعالي النّخيلِ لتتبعَنا
والنخيلُ استطالْ
وابتعدْ خطوتينِ لأُبصرَ وجهكَ يا صاحبي
بعد ذلكَ فلتنتشر كسؤالْ
نلتقي في المحطةِ.. لا ترتبكْ
وكنْ واثقَ الخطو يا صاحبي
– كيفَ يرتبكُ الآنَ من تحتَ أقدامِهِ أرضُهُ
وتحرسُهُ في المسير الجبالْ؟!
– إذن نلتقي
– نلتقي
***
.. في هذه اللحظةِ النّائيةْ
ستغافلُ أحزانكَ الغامضةْ
وستفتحُ نافذةً في الضّلوعِ
وترفعُ أمنيةً – سارية
أن يكونَ الهواءُ هواءَكَ
والبحرُ بحرَكَ
والشارعُ العربيُّ امتدادَكْ
وقد تحلمُ الآنَ أكثرَ.. أكثرَ

فليكن الموتُ موتَكَ
والعشقُ سقفَكَ
والشمسُ قبضتكَ العاليةْ
في هذه اللحظةِ النائيةْ
سوف تدعو النّوارسَ و (الهيلاهيلا)
وتغرقُ في نجمةٍ صافيةْ
أزهرَ اللوز.. وابتعدت خطواتُ الضبابِ
وأطْلقَ نَسرُ الهضابِ البعيدةِ صرختَهُ نخلةً عاليةْ
وفي البالِ مرَّتْ سطوحٌ.. جروحٌ
منازلُ مجدٍ غدتْ خاويةْ
سنرفعها حجراً حجراً
طفلةً طفلةً
ونشيداً
ونهراً
وأغنيةً تلِدُ السّاقيةْ:
اصعدي درجَ البيتِ يا سيّدَةْ
وإن عطش الزّهرُ في شرفاتِكِ
نأتي.. نمدُّ لكِ الأوردةْ
***
عسقلانُ الشوارعُ تأتي.. العناقيدُ
والأرضُ تدنو كثيراً من الخطواتِ
اقتربْ
وكنْ مطمئناً كخوفيَ
واصعدْ إلى الحافلةْ
واحداً
واحداً
واحداً
أربعةْ

وانتخبْ مقعداً يمنحُ القلبَ يا صاحبي أُفُقاً هادئاً
انتخبْ ما تشاءْ
وردةً في الخلاءْ
حقولاً ستمتدُّ عبرَ المسافةِ بينَ الحوارِ وبينَ الدماءْ
بيوتاً.. فَراشاً..حساسينَ
فلتنتخبْ ما تشاءْ
سوفَ تمضي إلى غزةَ الآنَ
فانشر ظلالكَ يا صاحبي كالسّماءْ.

تُقلِّبُ عينيكَ في قسماتِ الوجوهِ الغريبةِ
هذا الذي ينحني للجريدةِ
يقرأُ في صدرِ صفحتها فَرِحَاً:
(ان أربعةً وثمانينَ من بينِ مائةِ مستوطنٍ يكرهونَ العربْ)
والذي ينتحي جانباً قربَهُ
يتصفّحُ وجهكَ يبحثُ عن صفةٍ تستفزُّ انفجاراتِهِ
كي يقومَ ويشتم كلّ العربْ
فجأةً تقفونْ..
واحداً
واحداً
واحداً
أربعةْ
هبَّتِ النارُ وارتفعتْ في المدى زوبعةْ
– فلنُحدِّدْ مسارَ الدّقائقِ ما بيننا..
رحلةَ الحافلةْ
سوفَ نمضي لغزّةَ
أُمّي على عَتْبةِ الدارِ تتبعُ نجمتَهَا
إن تأخَّرتُ، أذبَلتُ وردتَها
وأنا لا أحبُّ التوابيتَ والوردةَ الذّابلةْ

صرختْ قُربَ بابِ الخروجِ عجوزٌ:

.. وماذا تريدونَ؟

– زهراً لنافذةٍ مقفلةْ

وطيوراً.. وبيتاً ألِفناهُ.. شمساً

– لدينا الرّصاصةُ والمقصلةْ!

فانتخبْ ما تشاءْ!

– ذاكَ سيدتي جوهرُ المسألةْ

تريدينَ دمّاً..

أنا لا أريد سوى سنبلةْ

سيدتي!

أُقفِلَتْ بيننا ساحةُ الأسئلةْ

***

دائماً يحملونكَ للموتِ

هم ينثرونَ المذابحَ

هم يزرعونَ السجونْ

وهم يرفعونَ الطّغاةَ

وهم يقطعونَ الغصونْ

ووجهتُكَ اليومَ بحرٌ.. وضوءٌ

وموجٌ على صدر غزةَ لا ينحني.. لا يخونْ

فلا تبتئسْ

أنتَ ما كنتَ إلّا لتبقى النقيضَ

لهذا السّكونْ

فانفجرْ

وانفجرْ

وكنْ في صقيعِ التعقُّلِ عاصفةً وجنونْ

***

– أنتِ

– ماذا!!

– هل تودِّينَ أن تنزلي ههنا؟
كانت امرأةً ترتدي ثوبَها المتورِّدَ
منذ احتدامِ الدّقائقِ أرخَتْ أصابعها فوقَ صمتِ الجنينِ
فأيقظتِ الخوفَ في رحْمِها
– تنزلينَ هنا
لا تخافي اهدأي
أمّيَ قالتْ صباحاً
وليسَ الصباحُ بعيداً:
لا تُطلق النارَ يا ولدي باتجاه الشَّجرْ
فهيَ أشجارنا
وإذ تُطلق النارَ حاذرْ إذن أن تُصيبَ صغيراً
فانَّكَ ما زلتَ في عين أمِّكَ تعدو على طُرقاتِ الصِّغَرْ
– تنزلينَ هنا؟
– إن أردتَ..
– انزلي..
إنما الموتُ في خارج الحافلةْ
وجنينُكِ ما بيننا في أمانٍ
ولكنّه ميّتٌ.. ميّتٌ
إذ تَرجعينَ إلى القتلةْ

***

من يُحدِّدْ
إذنْ
شكلَ هذا الحوارْ
من يحدِّدْ
إذن..
لونَ هذي الخديعةِ
وجَه التّناقضِ بين حبالِ الغسيل وبينَ حبالِ المشانقِ
متعَبةٌ في عروقي الإجابةُ والأسئلةْ

ومتعبةٌ لغتي السّائلةْ
دائماً كنتَ أطيبَ مما أردتَ
كعصفورةٍ ورثتْ مجزرةْ
كنقشٍ على منزلٍ يتطايرُ في الدّيناميتْ
كعُرسٍ تُغيرُ عليهِ العواصمُ
أو زنبقٍ طحنتْهُ القذائفُ والثرثرةْ
من يحددْ
إذن..
شكلَ هذا الحوارْ
لماذا تحاولُ منذ ثلاثينَ عاماً.. تحاولُ
ألاّ تكونَ فتىً طيباً
ثم تخفقُ يا صاحبي أن تكونْ؟!
كأنّ العصافيرَ.. والنبعَ في أسفلِ السفحِ.. نجمَ الصباحِ
هدوءَ الحقيقةِ.. والشهداءِ.. وقوسَ قزحْ
كلّها سكنتْكَ وشكّلَتِ الروحَ فيكَ
فكنتَ طفولةَ هذي المدائنِ
من عسقلانَ إلى نخلِ غزَّةَ
حتى مشارفِ أرضِ رفحْ
طيّبٌ أنتَ
حتى لتبدو كأنكَ طائرُ (فِرٍّ)
تحزُّ السكاكينُ رقْبتَهُ منذُ عشرينَ عاماً
ثلاثين عاماً.. ولكنّه ما انذبحْ
هل تفتشُ في هذه اللحظةِ النائيةْ
عن خوذةٍ تشبهُ العندليبَ
وعن طلقةٍ لم تحالف صليبِ
انتبهْ
كلّ من حولكَ امتشقوا حقدَهمْ
لن تكونَ الضحيّةَ

لا لنْ تكونْ
انتبه جيداً أيهذا الفتى
إنهم دفعوكَ إلى بطنِ حافلةٍ
ليس تحفلُ إلّا بشوكِ الكراهيةِ الفجِّ
حين استباحوا المدى والعيونْ
كن دائماً مثلما كنتَ يا أيهذا الفتى
لا تمتْ
ودُرْ دورتينْ
واسمع الآنَ غزةَ.. ماذا تقولْ
حينَ تأتي إليكَ لتمضي معكْ:
يا هواءَ النوافذْ
يا سليلَ الهديلْ
المحاربُ يمضي إلى الحربِ لا ولَهَاً بالحروبِ
ولكنْ، ليمحو خطى الموتِ عن عتباتِ المنازلِ
في ليلةٍ من دَمٍ حالكةْ
والمزارعُ يمضي إلى حقلهِ
لا ليجرحَ أرضاً بفأسٍ ولكنْ
لتغدو المياهُ وريداً وتتبعه في المساءِ إلى بيتهِ ليلكةْ
فكن يقظاً كالظباء انتبه
أنتَ تمضي إلى الضوءِ
لا ترتدِ الآنَ يا ولدي هذيانَ الفراشةِ
كنْ هادئاً مثلَ صقرٍ عتيقْ
لا كعصفورةِ السهلِ في الشَّبكةْ
وانتبهْ جيداً
قد زرعتَ الشجرْ..
فانتظر هادئاً
فالحياةُ الثمرْ
أوصيكَ يا ولدي دائماً:

حين تمتدُّ أرضُ السّواحل عاريةً
أو يكثرُ الجندُ حولكَ
كنْ في امتدادِ السّهولِ جبلْ
وكنْ أنتَ دولتَكَ العاليةْ
حين تسقطُ خلفكَ كلّ الدّولْ

***

شارع واحدٌ باتجاه رفحْ
نجمةٌ واحدةْ
فوقَ صدرِ رفحْ
كم ساعةٍ عبرتْ باتجاهكَ حاملةً عشبَها المقترحْ؟
وحاملةً موتَها المقترحْ؟
أرى في المغيب ظلالاً
أرى عسكراً يكمنونْ
ومساءً رأى ما رآه:
بنادقَ جنداً، كلاباً.
فأمعن في بحرهِ وابتعدْ
كلّهمْ حولكَ الآنَ كُرهٌ وموتٌ
وأنتَ الربيعُ الذي ينحني فوقَ صدرِ البلدْ
فانتبهْ جيداً

***

لينتفضِ البحرْ
وليُعلن البرُّ غضبتَهُ
كم مرّةٍ يقتلونكَ؟!
كم مرّةٍ يذبحونَ الغزالةَ فيكَ؟!
وكم مرّةٍ يغلقونَ الطريقَ إلى صدرِ أمك؟!
لينتفض البحرُ..
لا تتردْ
وكنْ أنتَ في ساحةِ الكفرِ مَعبدْ

واشهرْ سلاحكَ.. حبّكَ
كنْ في انتشاركَ فَرْقَدْ
وسيّج سطوحَكَ.. نافذةَ البيتِ.. أرضك.. شمسكَ
كنْ فارسَ الأغنياتِ العصيِّ الذي يتجدّدْ
هم يغلقونَ الطريقَ إلى صدرِ أُمكَ
هذي عيونُ بنادقهمْ
وحواجزهم
والكلابُ التي خُرِّجَتْ من مدارسِهمْ
وقفتْ في الجوارِ مُجوَّعةً تترصَّدْ
إفتحْ العينْ
عينَ النخيلِ.. وعينَ سلاحكَ
ها أنتَ تكتملُ الآنَ
تُعبَدْ
كم حاجزٍ سوف يرفُع هذا المدجّجُ بالحقدِ عبرَ الطريقْ؟
وشمسُكَ تصعدُ هذي الليالي
وحلمُكَ لما يزلْ يتورَّدْ
إنه الحقدُ أسودْ
إنه الحقد أسودْ
منذ ثلاثينَ عاماً تحبُّ اخضرارَ السهولِ
بياضَ البيوتِ.. ازرقاقَ المياهِ.. احمرارَ الكرزْ
ومنذُ ثلاثينَ عاماً تقاتلُ
لنْ تتبدَّدَ في لحظةٍ
آهِ لن تتبدَّدْ
كن يقظاً كالصقورِ.. انتبه
يطلقونَ الرّصاصَ.. الحواجزَ
فاطلقْ طيورَ سلاحكَ وابدأْ
ولا تتردّدْ
كلّهمْ يطلقونَ الرصاصَ عليكَ

من الخارجِ المتفجِّرِ.. من داخلٍ يتوعَّدْ
رصاصٌ.. رصاصٌ.. رصاصٌ..رصاصٌ
فلا تتردّدْ
ها هُم هنا تحتَ هذي المقاعدِ ينتشرونَ
وخلفَ الحواجزِ ينتشرونَ
وكلّهمُ يطلقونَ الرصاصَ
رصاصٌ.. رصاصٌ
وفي بيت جدكَ يغتصبونَ (العلالي) مساءً
وها أنتَ تبحثُ في الأرضِ عن مقعدٍ تستريحْ
أوّاهِ مقعدْ
رصاصٌ.. رصاصٌ
فلا تتردّدْ
دائماً كنتَ أطيبَ مما أردتْ
إنكَ تملكُ كلَّ فصولكَ
فليكنْ المشهدُ الآنَ مشهدْ
تتناثرُ هذي النّوافذُ حولكَ
هذا الحديدُ الذي يُصهر الآنَ أو يتقدّدْ
هم يصعدونَ السّلالمَ بالموتِ للحافلةْ
وحدكَ الآنَ
لكنكَ الآنَ
مثلَ جناحٍ على سطحِ غزّةَ
ليسَ يُحدُّ ولا يتحدَّدْ
إفتح العينْ
عينَ النخيلِ.. وعينَ سلاحكَ
ها أنت تكتملُ الآنَ
تُعبَد!

***

زورقانِ على البحرِ مالا قليلاً وفي هدأةٍ صعدا للسماءْ

طائرانِ على البرِّ بين الشِّباكِ وغزّةُ تزرعُ أشجارها
بينَ فصل الرّبيعِ وفصلِ الدّماءْ
زورقان هنا..
طائرانِ هنا..
قاتلونَ كثيرونْ
– من أينَ يا أمّنا يخرجونْ؟!
– من سيوف التتارِ
ومن شُعلةِ النارِ في كفِّ (نيرون)
– من أين يا أمّنا يخرجونْ؟
لم نكن نتقنُ القتلَ فلنعترفْ
ثم فلنعتذرْ
أننا طيبونْ
والحربُ ندخلُها عاشقينَ
فيتبعُنا الحُلْمُ والعاشقونْ
فلنعترف أننا طيبونْ
فلنعتذر أننا طيبونْ!
***
فلينتفض بحرُ غزّةَ
أجنحةُ الطائرِ المستباحةُ
فلينتفضْ كلّ هذا الدّمارْ
سنرفعهُ
وليكنْ في البدايةِ سنسلةً لحقولِ بلادي
وللطفلِ ظلّا وللعشقِ دارْ
فلينتفضْ كلُّ هذا الدّمارْ
قاتلونَ كثيرونَ
من أينَ يا أمَّنا يخرجونْ؟
- من سيوفِ التتارْ
ومن شعلةِ النار في كفِّ (نيرونْ)

الحقدُ أسودُ
من كلّ ناحيةٍ يخرجونَ عليكَ
ويقتسِمونَ طفولةَ لحمكَ..
يقتسِمونَ دماءكَ ما بينهمْ ويعودونْ
ليَطْلوا منازلَهمْ بالدّماءِ[2]
لعلّ الإلهَ الذي في الأعالي يراهم، فيرفعُ عن خوفهمْ
رعدَ هذي السماءِ الذي سيكونْ
الهراوةُ تهوي على الرأسِ
لا بأسَ
ارفعْ جبينكَ يا ولدي وانتصب عالياً
في كلّ زهرة فُلّ هنا ارتفعتْ نخلةٌ..
واستطالتْ حصونْ
دماءٌ على الجبهةِ النبويَّةِ
عاصفةُ الألمِ المرِّ في الصَّدرِ تحتَ الضّلوعِ التي تتهشّمُ
ارفعْ جبينكَ يا ولدي وانتصب عالياً
في كلّ زهرةِ فُلٍّ هنا ارتفعتْ نخلةٌ
واستطالتْ حصونْ
ها أنتَ تُثقلُ بالطعناتِ وشهوةِ هذه الهراوةِ للدّمِّ
ما الفرقُ بينَ الهراوةِ واليدِ؟!
لا فرقَ
فارفع جبينكَ يا ولدي وانتصب عالياً
في كلّ زهرةِ فُلّ هنا ارتفعتْ نخلةٌ
واستطالتْ حصونْ
ها أنتَ تهوي.. انتبه.. أنت تهوي
ومن كلّ صوب تجيءُ لترفعَ وجهكَ للشّمسِ
كلُّ الغصونْ
فارفع جبينك يا ولدي وانتصب عالياً
في كلّ زهرةِ فُلّ هنا ارتفعت نخلةٌ

واستطالتْ حصونْ
هم يقتلونكَ لا ريبَ
هذي الأيادي –المخالبُ أين تراها تُغيْرْ
عتمةٌ.. عتمةٌ
إنهم، إنهم يفقأون العيونْ
فارفع جبينكَ يا ولدي وانتصب عالياً
في كلّ زهرةِ فُلٍّ هنا ارتفعت نخلةٌ
واستطالتْ حصونْ

حينَ تُقْتَلَعُ العينْ
أين تمضي البحارُ اللواتي رأيتَ
البناتُ اللواتي عشقتَ
الجنادبُ تلكَ التي جاء موسِمُها
والحساسينُ.. والفِرُّ
والشرفاتُ اللواتي رأيتْ
أين تمضي؟!
تُراها ستصعدُ للقلبِ أم للجبينْ
إنني أتساءل يا ولدي
فلتُجبْ
في أيِّ سهلٍ وتلٍّ هنا في ضلوعكَ سوفَ تنامُ فلسطينْ؟
عيناكَ يا ولدي كانتا دائماً تَحْلُمانْ
فكيف هما الآنَ يا ولدي
فكيفَ هُما الآنَ؟
انتبه جيداً..
أنتَ تمضي إذن نحوَ موتِكَ
لا لمْ يَعدْ بيننا غيرُ هذي الدّقائقِ
غَيِّبْ هراواتِهم.. نارَ جرحِكَ.. موتَكَ
بضعَ دقائقَ.. واسمعْ:

إذا عُدتَ ثانيةً نحوَ صدري
فكنْ دائماً مثلما كنتَ يا ولدي
طيباً وشجاعاً كأمواج غزّةْ
... ...
أنتَ تمضي إلى الموتِ
حينَ يُسجُّونكَ الآنَ في القبرِ
ارفع جبينكَ يا ولدي
وانتصبْ عالياً
عالياً.. عالياً.. عالياً
في كلّ زهرة فُلّ هنا ارتفعت نخلةٌ
واستطالتْ حُصونْ
في كل زهرة فُلٍّ هنا
ارتفعت نخلةٌ
واستطالتْ حصونْ
1984

ـ حوارية الصديقين

دورةُ السنواتِ البعيدةِ
صوتُ القطارِ البطيءِ
وطيارةُ الورقِ..
الخوفُ من حُجْرةِ الفأرِ!
ظلُّ الجدارِ الكسولْ
وذاكَ التردُّدُ في أن نقولَ.. وألّا نقولْ
كانَ شارعُنا ضيّقاً..
والملاعبُ وحشيةً
عبرتْ دَمنا الشمسُ.. والطرقاتُ.. حليبُ (الوكالةِ)..
صفرةُ أجسادِنا
عبرتْ دَمنا الطعناتُ.. العصافيرُ
حتى التجأنا لأسمائنا
كي تدلَّ علينا
هلْ نقولُ استطالتْ سواعدُنا
وانتشرنا إلى الأرضِ مثلَ الحَمامْ؟
هل نقولُ كبرنا
وكانَ المخيمُ خطوتَنا بينَ عامٍ.. وعامْ؟
وحين رأى الموتُ قامَتَنا
اندفعَ العمرُ يركضُ حتى اختبأنا- كَبُرنا.. هنالكَ بين
الزّحامْ؟
يا صديقي إذن
هل أُهنئكَ الآنَ
أنّا اكتملنا.. اكتملنا.. اكتملنا؟!
سلامٌ.. سلامْ
يا صديقي إذنْ
هل أُفاجئكَ الآنَ بالسرِّ

أكشفُ عن جسدي.. وجراحَ النّدى.. والغمامْ؟
سلامٌ.. سلامْ
***
بين موتينِ كنّا عبرْنا الطفولةَ
لم نكتملْ في البداياتِ
لم نكتملْ في الحليبِ
ولم نكتملْ في الأغاني
ولم نكتمل في الحروبِ
ولم نكتمل في السلامْ!!
ثلاثونَ مقصلةً خَلْفَنا:
مخبرونَ.. جيوشٌ.. وآلهةٌ.. وبغايا
عبرنا الطفولةَ
ننتزعُ الخُبزَ من قلبنا
وننتزعُ الوردَ من جمراتِ الشّظايا
أيا صاحبي
.... في الوقتِ متّسعٌ
أنتَ نَمْ
وأنا سأواصلُ هذا الكلام!!
... ...
طعنةٌ ويدانْ
طلقةٌ وحوارٌ يظلّلنا
شجرٌ ودماءٌ تتابعنا
منذُ أن عَرَفَ البحرُ أسماءنا
واندفعنا إلى صدرهِ مُتعَبَينْ
إن قُتِلتَ فقلْ للطيورِ التي خسرتْ ظلّها
قلْ لها أين تمضي
ودعْ لدمي حُلْمَنا.. واليدينْ
هلْ تعرف الآنَ

إذ انتحي جانباً
ثم أكتبُ هذي القصيدةَ
في غرفة لا تطلُ على شرفةٍ.. أو غناءْ
ولا تبلغُ الضوءَ في شارع للإذاعةِ يُفضي
ولا يشربُ الشمسَ شباكُها
سوى في الظلام!!
هل تعرف الآنَ
إذ أَجْمَعُ العمرَ في الورقِ الأصفرِ
الحبرِ.. والمقعدِ الخشبيِّ.. وصورتِنا
هل تعرف الآنَ أنكَ ما زلتَ ما بينَنَا
سوف تضحكُ
أعرفُ هذا الحديثُ الطويلُ: اختصارُكَ في جملةٍ أو سماء
وأعرفُ..
هذي الصِّفاتُ التي أُكملُ الآنَ زينتَها
لم تكنْ ليديكَ الأليفةِ داليةً.. أو هواءْ
في البداياتِ.. نسَّقتُ ظلّي
في البداياتِ..
لا.. لا تقلْ لي
فإني أُعدِّدُ ألقابنا
ومشاويرَنا
وأُضيفُ العصافيرَ
سيارةَ الخشبِ.. الفخِّ
حتى إذا اكتملتْ دورةُ الصَّمتِ
أستحضرُ الجوعَ كي أقتلَهْ
وأستحضرُ الخوفَ كي أقتلَهْ
واستحضرُ الشمسَ حتى أنام!!
سلامٌ.. سلامْ
.....

أُمي الجميلةُ تعرفُها
ثوبُها لم يزلْ رايةً للأغاني
وراحتُها لم تزلْ وطناً لصغارِ الحَمامْ
جَمّعتْنا وفي الوقتِ مُتّسَعٌ لدماءٍ جديدةْ
وصمتٍ جديدْ
ومتّسعٌ لبكاءِ القصيدةْ
ورحيلٍ بعيدْ
أُمي رمتْ ظلَّها بيننا
فاستعدنا طفولتَنا
يا صديقي تمهّلْ إذن
يا شهيدي تمهل إذنْ
كلُّ مَنْ أكملَ الحبَّ
أو أكملَ العشبَ ما بيننا
خطوةٌ للوطنْ
يا صديقي تمهل إذن
تمهلْ..
تمهلْ
هكذا أنت مكتملٌ
لم تزلْ هارباً من دروسِ الحسابِ
وملتجئاً لظلال القصائد.. والمدرسةْ
ومعتمراً هدأةَ البحرِ
هذا التّمايزَ ما بين سترتِكَ اليابسةْ
وقمصانِ حُلْمِكَ.. أو ساعديهْ
هكذا الوردُ مكتملٌ.. ويدورُ.. وأنتَ إليهْ
لم تكنْ أبداً كاملاً مثلما اليوم
إني أُقلّبُ هذا الزمانَ الذي يتجمَّع ما بيننا من سنينٍ
وأذكر تلكَ الصّغيراتِ حينَ انتفضنَ
كَبُرنَ مباغتةً قبلَ أن نبلغَ النّخلَ والأمنياتِ الصغيرةْ

وحينَ استدرنَ..
اكتملنَ برمانهنَّ.. وأعينِنا
واختبأنَ على أسطحِ الطائراتِ.. كأحلامنا
هكذا أنت مكتملٌ
والرّصاصُ لشبّاكنا
مرةً قبلَ أن نلتقي الآنَ
كُنّا أغَرْنا على الجوعِ
والشّجرِ الأخضرِ.. اليابسِ.. الموتِ
أعرف.. لا لم يكنْ ذلكَ الغضبُ المتعَبُ- الحُلْمُ:
وجهاً لهذا الوضوحِ الذي يتفجَّرُ في صدرنا الآنَ
لا لم يكنْ..
مرةً قبل أن نلتقي الآنَ
كُنّا ملأْنا جيوبَ سراويلنا.. ويدينا
وكنا ملأْنا ارتعاشاتنا غبطةً.. وأجاصْ
ولما وصلنا إلى ظلِّنا
استرحنا قليلا
وها نحنُ نركض يا صاحبي
كلما أمسكَ الحُلْمُ.. أو يدُنا
شجراً مثمراً
أو نهاراً جميلا!

***

هكذا أنت مكتملٌ

لم تكنْ صدفةً أن ترى الشمسُ قاماتِنا
لم تكن صدفةً أن يلامسَنا البحرُ.. هذا الهواءْ
أو يعبر النّهرُ شباكَنا خلسةً في المساءْ
لم تكن صدفةً أن نغنّي ونَحلُمَ
أو تجمَعَ الأرضُ أحلامَنا

لم تكن صدفةً أن نسيرَ إلى الشجرِ الأخضرِ الآنَ..
مُشتبكْينِ بهذا العِناقْ
لم تكنْ صدفةً أن نواصلَ هذي الحياةْ
...
من التَّعبِ.. الوحلِ.. والغضبِ المُرِّ
جئنا.. كَبِرْنا
وما بينَ مجزرةٍ.. وارتحالٍ
جَمَعْنا أصابعَنا.. واكتملْنا!

حوارية الغريب ـ

سيرة داخلية للفتى السوداني عازف الغيتار علي عيد

أفقٌ يتساقطُ، ونوافذُ مشرعةٌ للضوءِ،
وللوقتِ الآخرِ في الطرقاتِ،
خطى تتعثرُ
ولدٌ أسمرُ
من أغواكَ الآنَ لتهبطَ في هذي الأرض؟!
ومن أغواكَ لتخلعَ أشجارَ الجوزِ.. بذورَ الأيامِ؟!
ومن أغوى طائركَ . القلبْ
ليقايضَ شمساً وفضاءً
بنوافذَ وسطوحْ؟!
من أغوى هذي الروحْ؟
هل تسمعُ خطواتِ الفلاحينَ وعصفورَ الفرح المخلوعْ
ورعودَ الطّعنةِ في الصدرْ؟
هل تسمعُ صوتَ الصخرْ؟
وطبولَ القريةِ ووعولَ الأعشابْ؟
هل تسمعُ؟
– أسمعُ.. أسمعْ.

أُفقٌ يتساقطُ
وخطىً تتعثرُ
ولدٌ أسمرُ
ونحيلٌ مثلَ يديَّْ أُمي
عينانِ مشرّدتانِ..
سنونو يتنقّلُ بينَ الماءِ وبين النار
دمٌ يكتسحُ الغيمةَ فيكونُ الإعصارْ
وغزالٌ يشربُ صمتَ الليلِ الرّاعشِ.. تتبعهُ الأنهارْ
طعنتُهُ الأُولى.. رحلتُهُ.. ابتدأتْ من حُمّى الأوتارْ

وعليٌّ يشبهُ أغنيةً
ابتكرتْ مزماراً.. وفضاءً
فرمتها الشّرطةُ بالأسفارِ
خطىً تتعثرُ
– هذي الموسيقى هل سكنتْ أوردتي قبلَ الدّمْ؟!
هل سكنتْ جسدي قبلَ الحُلْمْ؟
هل سرقتْ روحي؟
هل زرعتْ بدلَ الروحِ الغيمْ
لأرحلَ مبتعداً
أُفقاً يتساقطُ في مدنٍ ضيقةٍ كالهمِّ؟

خطىّ تتعثرُ
ولدٌ أسمرُ
يتساءلُ إذ يُمسي في مدنٍ نائمةٍ تحتَ الشرفاتِ المختومةِ:
كيفَ أقيم هنا ما بين غيابِ الطائرِ والأُغنيةِ؟
وكيفَ أرى الغابةَ تأتي من غيرِ وعولْ؟!
كيفَ أرى الأشجارَ ولا ألمسُ خُضرتَها؟
كيف أُعانقُ إمرأةً.. لا يجري فيها النيلُ؟
وكيف سأرقص هذي الليلةَ مجنوناً من غيرِ طبول؟!
مجنوناً أرقصُ
أعرفُ.. أعرفُ
هذي الحُمّى تسبقني
وطني.. يا وطني.. يا وطني
هذي الحُمّى تشبهني
إذ أسكنُ صمتَ الطّرقِ الليليّةِ، تسكنني في مدنٍ أُخرى
ونساءٍ من لهبِ الغربةِ.. وزجاجٍ يَكسرُني!

خطىً تتعثُر
ولدٌ أسمرُ

منذُ ثلاثةِ أيامٍ.. أو أكثرْ
ما جدوى أن ندخلَ في الوقتِ؟
لكي نَكبَرْ؟؟!
منذُ ثلاث ليالٍ يبحثُ عن غيتارْ
هذي الأشجارُ الملعونةُ تتيبّسُ في كفَّيهِ
وفوقَ رؤوسِ أصابعهِ يرتفعُ الثلجْ
ثلاثةُ أيام بلياليها..
تضربُ ذاكرةَ الغابةِ فيهِ رماحُ الموجْ:
– غيتارٌ يكفي..
أُغنيةٌ تكفي..
أُمنيةٌ واحدةٌ تكفي
أن أرقصَ هذي الليلةَ
أن أُطْلِقَ صوتي في الريحْ
أن أغوي شمسي بصهيلٍ غجريّ
أن أحترقَ الآنَ كزنجيّ
أن أعزفَ حتى أسقطَ
أو يرتفعَ الغيتارُ
وترتفعَ الأوتارُ
وترتفعَ الدنيا

أُفق يتساقطُ
وخطىً تتعثرُ
ولدٌ أسمرُ
وعليٌّ يسألُ..
كمْ تسألْ:
– سرقتْني أُغنيتي
لم تتركْ لي وقتاً أجمعُ أيامي
لمْ أحملْ أُمنيةً في صدري غيرَ الغابةِ

أتعبُ أحياناً
تأخذني مثلَ صغارِ الغزلانِ
تُغطّي جسدي بالأعشابِ وتفتحُ لي يُنبوعاً في الرّملِ
وفي النسيانْ
وتتركني أتلوَّحُ بالخضرةِ
قد أبْدو تَعِباً بعض الشيء الآنْ
قد أبدو أكثرَ حُزناً من إنسانْ!!
قد أبدو مُحترِقاً بعضَ الشيءْ
لكني إذ ألمسُ غيتاراً أو سيدةً يجري فيها النيلُ
أعود إلى سيرتيَ الأولى:
نصفُ دمي وطنٌ.. والآخرُ بُركانْ

أُفق يتساقطُ
وخطىً تتعثّر
ولدٌ أسمر
– حملتْني أُغنيتي
فأعادتني أُمي للحَلْفاءْ
سرقتْني أُغنيتي والرّيحُ
وفي الصّمتِ الصّاخبِ رَفّتْ أجنحةٌ زرقاءْ
قُلتُ رحيلي يُورقُ
لكن الصَّحراءْ
سبقتْني..
أَحرقتِ الخطواتِ وكلَّ حقولِ الماءْ
فيا فقراءَ الأرصفةِ ويا شعراءَ الدّم المتكاثرِ في الرّيحانْ
هل هذي عَمّانْ؟!
هل هذا القمرُ المشنوق على شرفتها خبزٌ للأطفالْ؟
هل هذي الصرخةُ موسيقى اللّحمِ البشريِّ أَم الأعراسْ؟
هل هذا الصمتُ غناءُ الناس؟

هل هذا الماءُ الطّيبُ بعضٌ منْ سُمِّ الكاس؟!!

خطىً تتعثّرُ
ولدٌ أسمرُ
مطرٌ خطوات..
واجهةٌ تلمعُ، غيتارٌ بينَ العينين تماماً، سيدةٌ في الرُّكنِ،
وموسيقى غامضةٌ، فالأبوابُ مغلَّقةٌ
تنطلقُ الغاباتُ..
تحلِّق أشجارٌ.. أنهارٌ.. وظلالٌ.. إيقاعٌ.. صلواتْ
غيتارٌ بين العينينِ تماماً والجسدُ جهاتْ!
مجنونٌ أنتْ!
مجنونٌ كفراشَةْ
مجنونٌ مثل (طيورِ الشّوكْ)
إذ تخترقُ الموتَ بصدرٍ عارٍ
إلاّ من فرحٍ فطريّ
مجنونٌ أنتْ
مجنونٌ
تخطو.. تجتازُ العَتَبَةَ
هذا الثّلجَ الصامتَ فوقَ أصابع كفّيكْ
تجتازُ اللحظاتِ الموقوتةَ
يقتربُ الغيتارُ
السّيدةُ الآنَ تُقلِّبُ دهشتَها:
ولدٌ أسمرُ وخطىً تتعثّرُ؟!
يقتربُ الغيتارُ
تفاجئُ صدركَ وأصابعكَ الرّاعشةَ الموجْ
بحريرِ الخشبِ النّاعمِ
ينهمرُ الدفءُ
وتنسى الغربةَ.. أو تنساكَ قليلاً:

– وطني.. يا وطني.. يا وطني
ساحرةٌ هذي اللحظةُ
وأليفٌ هذا الفرحُ الغامرُ
وتغني:
– من أيِّ صحارى الأرضِ سأقتطعْ الينبوعْ؟
موسيقى الخطوات المذبوحةِ تطعمُني جسدي وتجوعْ
والشجرُ الباسقُ
يسرقُ هذي الدّهشة حينَ يُداهمني عصفورٌ..
أو وطنٌ مخلوعْ!
والحُلْمُ هنا..
وسأقصدُ أن الحلْمَ، هنا وهناكَ، دَمٌ.. وفمٌ مشموعْ!
في أيّ بلادِ اللهِ سأفتحُ نافذتي
وأرى الأيام تطوّقني بالألفةِ.. لا بالأسفارْ؟
في أيِّ بلاد الله سأُطلقُ خطواتي للطرُقِ وللمطرِ الفضيِّ
فلا تلسعني رائحةُ الدَّمِّ
وأشلاءُ اللّحمِ البشريِّ على الأشجارْ؟
في أي بلاد اللهِ سأبدأُ أُغنيتي
أو أُنهي أيامَ التَّعبِ الأزليِّ
وأزرعُ في الشرفة شعراً أو أزهارْ؟
يا سيدتي
يُحزنني أكثرُ ما يحزنني غربةُ هذا الغيتارْ
وأوردتي تلكَ الصَّافيةُ
وتُدعى في العادةِ أوتارْ!
يحزنني أكثرُ ما يحزنني أن الشّمس هنا أسرارْ
وأن الحُلْمَ هنا أسرارْ
وأن الفرحَ الأخضرَ في هذي الأرضِ
يدٌ لاحتْ ذاتَ مساءٍ من نافذةِ قطارْ!
يا سيدتي

يكفيني بعض الدّفء الليلةَ كي أعبرَ سنواتِ النّارْ
وأُطلَّ على عمري المتوزِّعِ في الأنهارْ
يكفيني من هذي الأغنيةِ المذبوحةِ.. شجرةْ
تكفيني من أيامِ الجمرِ وأمتعتي.. ثَمرةْ
يكفيني أن أكسرَ في جسدي الموتَ، وتيجانَ السَّحرةْ
يكفيني أن أغفو وأنام
بعيداً عن عُهرٍ يقتُلني في صلواتِ الكفرةْ!
سيدتي سوف أُتوِّج هذا التَّعبَ الليلةَ بالحُمّى!
وأُريقُ النهرَ على صدري بَلداً
وأُريقُ الغيما
وأقول لأمنيةٍ عبرتْني: امتشقي كفِّي عنواناً
ويدي ذاكرةً.. جسما
... ...
مدنٌ تتعثّرُ!
ولدٌ أسمرُ
تصحو
ما زالَ الغيتارُ.. وبعض أغاني الدّم على شفتيكْ
تصحو..
في أقصى القلبِ تماماً شجرٌ يعدو.. سُحُبٌ تعدو
لكنّ الغربَة والبوليسَ وصمتَ الظلّ.. وكلّ الكلِّ عليكْ

تعبرُ عينيكَ الشمسُ.. حديثٌ لم يبدأْ
– يحزنني أكثرُ ما يحزنني.. أن الجوعَ هنا مرفأْ
وأن الصّمتَ.. ورأسَ الحربِة.. والطعنةَ مبدأْ!

تطالُعكَ السيدةُ الآنَ
وتسألُ هذا القمرَ النائمَ في فَلَواتِ القهرِ: أترحلُ؟
– لا أرحلُ
لكن الطّرقاتِ تفرُّ.. فأتبعها

لأَلُمّ الطفلَ الضّائعَ في وحشتها: قلبي!
أو أطويها في لحمي كي أُوقِفَها
– أتحبُّ الخبزَ؟
– أُحبُّ الوردَ فأحيا سيدتي بالخبزِ
أُحبُّ الخبزَ فأحيا سيدتي بالوردْ
– كم يوماً مرَّ عليكَ بلا زادٍ؟
– عمري.
– كم وطناً مرَّ عليكَ بلا أرضٍ؟
– وطني.
– والأيامْ؟
كيفَ ترى الأيامَ هنا؟
– طيبةً بعضَ الشيء.. وقاتلةً أكثرْ!
والعمرُ يمرُّ علينا الآنَ لكي نَكبَرْ
– والطرقُ.. الأضواءُ.. الشرفاتْ
كيف تراها؟
– غامضةً مثلَ الموتِ ولامعةً مثلَ الخنجرْ
– والمدنُ هنا
كيف تراها؟
– لا تشبهُ صوتَ الناسِ.. ويُشبهها العسكرْ!
– والموسيقى؟
كيف تراها؟
– سيدتي..
يلزمني صمتي لأُجيبْ!
لأقولَ.. رمادي الأخضرْ!
– هل تزرعُ أشجارَكَ في هذي الأرضِ وتبقى؟
– الرحلةُ أبقى سيدتي
وغيابيَ أبقى!
سيدتي قد غَرّبتُ الدنيا.. وتغرَّبتْ

لكني حينَ جَمَعْتُ العالمَ وتكسَّرتُ.. أتيتُ هنا
قلتُ: أُغني للوطنِ العربيِّ
أُغني للفرحِ السريِّ
أغني للأزهارِ
أُغني للأوتارِ
أغني للأغنيةِ
أغني للعلنيّ:
(بلاد العُرْبِ أوطاني من الشامِ لبغدانِ
ومن نجدٍ إلى يمنٍ إلى مصرَ فتطوانِ)
هأ.. هأ.. هأ.. هأ!!
– أتكشفُ هذي النجمةُ في عمّانَ جراحكْ؟
– يكشفُها جرحي..
لا تعنيني الأسماءُ كثيراً
في تعبي اختلطتْ كلُّ المدنِ
لا أذكرُ
إني لا أذكرُ أين اكتملتْ دائرةُ الموتِ
هنا.. أم في (الخرطومِ)؟
هنا أم في (أسوانْ)؟
هنا أم في (جدّةْ)؟
وهنا أم في (بغداد)؟
أتعبني تعبي
مقصلةٌ..
ابتلعتْ شعباً وبلادْ
أتعبني صوتي
أتعبني موتي
أتعبني هذا القلبُ الطائرُ
أتعبني تعبُ الأجدادْ
يا أجدادْ

هل خُنتمْ دَمَنا
واللغةَ الفصحى والأولادْ
حينَ رحلتمْ
وتركتمْ لعيونِ صغاركم الخونةْ
وكلابَ الموتْ؟
هل خنتمْ هذا الوقتْ؟
أم خُنّا شجراً يطلُعُ في فلواتِ الروحِ غريباً
ويموت غريباً؟
هلْ خُنتُمْ
أم خُنّا؟
أم خانوا الشمسَ الطيبةَ.. الحُلْمَ الطيبَ..
ذاكرةَ الدّمِّ.. وظلَّ البيتْ
يا سيدتي..
مدنٌ تتعثّرُ!!
وزمانٌ يكبرُ فينا إذ نبتلعُ الصوتَ..
سأصرخُ
وأنادي ذاك الولدَ الأسمرَ وضحايا العصر الدّمويّ:
عليٌّ.. عليّ
كأنّ سجونَ الموتِ المزروعةِ في النيلِ تراها الآنَ هناكَ
وأنتَ هنا
والجوعَ الكاسِرَ أنتَ تراه الآنَ هناكَ
وأنتَ هنا!
فكأنّ النيلَ الآسرَ ينبعُ من مراكشَ
يجري حتى تنكسرَ الشمسُ هنا
فكأنّ النيلَ هنا
وكأن الغربةَ تشربُ عينيكَ الآنَ هناكَ
كأنكَ تكتشفُ العالمَ في لحظةِ صمتٍ
أو لحظةِ موتٍ

وكأنّ الوقتَ يمرُّ علينا الآنَ لكي نَكبَرَ
أو نتوارى
وكأنّ العطش المجنونَ تشقّقَ في الأعماقِ
وهذي المدنُ صحارى
هل نَكبَرُ حقاً؟!
هل نَكبَرُ حقاً؟!
كيفَ كبِرنا؟!
إني أُعلن هذي اللحظة ميلادَ طفولتنا
أُعلنُها بيديَّ
بأوتار الغيتارِ
وبالأسرارِ المُنحازةِ حينَ أُفجّرُها
أُعلنها
أني أمضيتُ العمرَ
وأفنيتُ غنائي
وأنا أختلسُ الأيامْ
الآنَ سأصعد قمةَ هذا الحُلْمِ
وأقطفُها
وأمدُّ يدي في حَلْقِ الذِّئبِ
وأُرجِع جثتيَ المنسيّةَ منذُ قرونْ
الآنَ سأصرخُ لي كفانِ.. ولي أمنيةٌ وجنونْ
الآنَ سأحلُمُ
وأحاورُ بارودَ الحُلْمْ
وأنشدُ وأصادقُ كلَّ سُهوب الغيمْ
الآنَ سأختم هذا اليومْ
بصورةِ أمي وعيونِ النيلْ
وأترك نافذتي مُشْرعةً للشمسِ تمرُّ على جسدي
طيبةً كالحناءِ
وهامسةً لي:

كم تبدو يا هذا الطفلُ شقياً ونحيلْ!!!!

كم تبدو يا هذا الطفل شقياً ونحيل!!!

ـ الفتى النهر.. والجنرال

حكاية جندي على ضفة النهر..
إليه وإلشهداء الجنون العربي الرائع

لا تجيءُ الحكايةُ من غيمةٍ تعبرُ الأرضَ ظلاً
وتتركُنا عرضةً للذّبولْ
ولا من يدٍ كلّما قامَ في دمنا طائرٌ
سرقتْ صوتَهُ وفضاءَ الحقولْ
لا تجيءُ الحكايةُ من قمرٍ باردٍ وخجولْ
نحنُ نزرعُها في الكلامِ صهيلاً
كما نزرعُ القمحَ
حتى تكونَ السهولُ السهولْ
ونزرعُها في الصغارِ لكيْ
تتوحَّدَ أرواحُهمْ بالخيولْ
فاصهُلي واعبري الأرضَ أيتُها الكلماتُ كما الرّيحِ
ولتوقظي الضوءَ في شرفاتِ المدائنِ
ها مشعلُ الدَّم فيكِ توهَّجَ
حتى انجلى السرُّ كالعرسِ وانتشرَ الأرجوانْ
حكايتُنا.. نصفُها غَدُنا
وما يتبقّى أغاني القُرى
حينَ ينهضُ فيها الحماسُ حصان

***

من هنا سنقصُّ على السّامعينْ
سيرةَ العشبِ في أوجِ خُضرَتِهِ
سيرةَ الزّنبقِ المتفتِّح فجراً
سيرةَ البرقِ حينَ يضيءُ الضِّفافَ
ويبقى مقيماً كزيتونةٍ بيننا
سنقصُّ هنا
سيرةً لفتى

كلّ ليلٍ نرى النجمَ يَبحثُ عن ضوءِ جَبهتِهِ
كي يحدِّدَ وجهتَهُ في السّماءْ
ونقصُّ عليكمْ شموساً وحقلاً وصفصافةً لم يطأْها مساءْ
ونقصُّ الحكايةَ حتى نرى الفجرَ يخرجُ من صدرنا
ونغني، على شرفاتِ البيوتِ – السجونِ:
ستبقى الدِّماءْ
أوّلَ الضوءِ.. والماءِ
أوّلَ من منحَ الناسَ قاماتِهِمْ
كي يروا مجدَهمْ
وستبقى الدِّماءُ.. ونتبعُها
مثلما يتبعُ القلبُ في نبضهِ
آخرَ الأنبياءْ

***

يقولُ الفتى:
جاءني النّهرُ من آخرِ الأرضِ ألقى السَّلامَ
تحسَّستُ حزنَ المياهِ وروحي
وكنتُ وحيداً
ولي من مدى العشبِ برْدُ القِممْ
لا أرى الموتَ في جسدي
لا أراهُ..
ولكنني أينما سرتُ يتبعني صارخاً خيطُ دَمْ
لا ماءَ.. صوتي تشققَ
والعشبُ في الصدرِ يحترقُ الآنَ
أرفعُ كفّي لأشربَ
ترتجُّ ريحٌ.. ويشردُ غيمٌ.. ويشردُ غيمْ
وما بينَ كفِّيْ وبينَ مياهٍ تسيلُ مسافةُ أنْ أنحني
ثمّ أروي دمي
آهِ من هذه الرّوحِ لا تلتئمْ!

وحيدٌ كأنّ ضلوعيَ فرَّتْ
كأني تبعثرتُ من ألفِ عامٍ
ولا يكسِرُ الرّوحَ أنى وحيدٌ
وفي الصدر عشعشَ طيرُ الألمْ
يُكسِّرها أنني دونَ حُلْمْ
***
كانتِ الشمسُ تُعطي النهارَ سلالَ البنفسجِ والبرتقالِ
وتمضي إلى بيتها البحرِ
حين أتى الصوتُ ممتلئاً بالأوامرِ والشَّوكِ
حينَ أتى نافراً مثلَ خِنجرْ:
غداً عرسُنا وربيعُ المعسكرْ
سينزلُ ما بيننا الجنرالُ
وكلّ مدىً بينَ عينيهِ أخضرْ!
أضيئوا الكمائنَ
قالَ فتىً:
والعدوُّ الذي ساهرٌ قربَنا؟!!
جاءَهُ الصوتُ:
يا أيها العسكريُّ البلادُ التي خلْفَنا دائماً شاسعةْ!!
غداً عرسُنا وربيعُ المعسكرْ
سينزلُ ما بيننا الجنرالُ
وكلُّ مدىً بين عينيه أخضرْ!
فلنكنْ كأناشيدنا الفارعةْ
فلنكن كالجوارحِ منتصبينَ
اندفاعاً.. وأجنحةً مُشْرعَةْ
ولنقلْ ما نقولُ بصمتٍ
لتقرأنا عينهُ ورضاهُ وجدرانُ هيبتهِ الأربعةْ
إذا غضب الجنرالُ علينا
فأيُّ سماءٍ ستهبطُ للأرضِ

كي توقِفَ الغضبَ المتفجِّرَ.. كي ترفَعهْ؟!
نحنُ جندٌ
وما الجندُ إلاّ كزوجٍ يسيرُ بها البعْلُ أنّى يشاءُ
وليسَ لها.. غير أن تتبعَهْ!!
فانْ قالَ إنّي إلى الحربِ أمضي بكمْ كالخرافِ
إلى السِّلْمِ أمضي بكم كالخرافِ
فماذا نقولْ؟
– نحنُ دوماً معهْ!
هنا واقفونَ على ضفةِ النهرِ
سبحانَ سيدنا الجنرال
فلا طلقةٌ تخدشُ الأُفْقَ
نغفو وملءَ الجفونِ المدى هادئاً.. حالماً
يا لهذي الدِّعَةْ
كأنّا هنالكَ بين بنِينا وزوجاتنا برعمٌ يتفتَّحُ
لا عسكراً نابتاً في الخنادقِ
تمضي العروقُ به مُسرعةْ
إلى طلقةٍ ليرى مَصرعهْ
يا لهذي الدِّعةْ!
ولكم هذه الليلةَ المطمئنةَ أن تحلموا راقصين
ولكنْ.. بطلعتِهِ
والنجومِ التي شكَّلَتْ سيّداً
والهدوءِ الحريرِ الذي جَمَّعَهْ
وموعدنا الفجرُ
يا أيها الجندُ فانتشروا
وليكن خندقُ الحربِ أبيضَ مثلَ سريرٍ فسيحٍ
وكلٌّ بساطيركمْ لامعةْ!

***

يختفي آمرٌ..

والندى سائرٌ
للمياهِ..
وينفضُّ جُندٌ
فكلّ سيأوي بصمتٍ ليَحلُمَ في نعشهِ!
والصباحُ بعيدْ
قناديلُ ساهرةٌ كنهارٍ
عيونٌ مكبلةٌ بالنعاسِ وبالشَّوكِ
والنهرُ يخفق بينَ العدوِّ وبينَ العدوِّ
وهذا مساءُ السَّلامِ الطويلْ!
الكمائنُ في فُوهاتِ الكمائنِ غربَ المياهْ
الرؤوسُ معلَّقةٌ كالدُّمى في أعالي النّخيلْ
واضحٌ موتنا
ليسَ يحتاجُ جُندُ العدوِّ هنا لعبورِ الدِّماءِ إلينا.. دليلْ!
قناديلُ ساهرةٌ
والبنادقُ تشخرُ!!
هل يقفُ العسكريُّ المدجَّجُ بالحقدِ فوقَ أسِرَّتِنا
كي يعيدَ فتىً ذاهباً في الكَرى نحو صحوتهِ؟!
هل يقولُ لخنجرِهِ المتحفِّز للدَّمِ
فلتهدأ الآنَ كي نتأمّلَ عنقَ الفتى
يا لعنق الفتى.. هادئٌ وجميلْ؟!
هنا في الخنادق لا يدفعُ السِّلْمُ خِنجرْ
أُحاول أن أُمسك الحلْمَ لكنّه دائماً يتفجرْ
زهرةٌ تتفجرْ
خندقٌ وسلاحٌ.. وماءٌ.. وسائدُ.. عينٌ تنامُ
غصونٌ.. خريفٌ طويلٌ هنا.. كُلها تتفجَّرْ
عنكبوتٌ.. بيوتٌ.. سكونٌ.. وألوانُ قوسِ قزحْ
كلُّها تتفجّرْ
عناقيدُ أعمارنا..

حُزمةُ الكلماتِ التي تتجمَّعُ في (الميجنا)
كي تكونَ الأغاني قلاعاً لأرواحِنا
ههنا
كلُّها تتفجرْ
أيُّ جرحٍ إذنْ شقَّ لوني وأورثني فحمَ هذا الخجلْ؟!
وقد كنتُ منذُ الطفولةِ رمحاً طويلاً وأسمرْ
ناديتُ والصمتُ بحرٌ
وناديتُ:
اللهُ أكبرُ.. اللهُ أكبرْ
فانتفضَ العسكريُّ الذي كان قربي.. قطاةً
وناديتُ: حيَّ على وطني
وطني حينَ يُحْتَلُّ أَكبرْ!
***
.. كانَ الفتى يبصرُ الريحَ تعبرُ صمتَ الضِّفافِ بلا جسدٍ
توقظُ الكائناتِ
وتبلغُ أقصى الجهاتِ بلا وجلٍ
ويرى الزّنبقَ المتكاثرَ في النّهرِ
أبيضَ فوقَ المياهِ ويضحكُ ممتلئاً بالحياةِ
بلا وجلٍ
ويرى طائراً يتنقّلُ بين الغصونِ وبينَ الخنادقِ
يطلقُ أُغنيةً ههنا
ولكنّها لم تكن تكتملْ
إلّا إذا عبرَ النهرَ نهراً
وجمَّعَ فيها الندى والجبلْ
..كانَ الفتى وحدَه حجراً
واقفاً بين أشواقهِ والترابْ
وجهُهُ رايةً كانَ والبندقيةُ كانت هناك مرورَ السَّحابْ
يداهمهُ وجعٌ كاسرٌ

تخرجُ النارُ من عظمهِ صرخةً
إيهِ أيتها الأرضُ يا أمّنا
مُحْكَمٌ حولكِ القيدُ
لكنكِ الآنَ لا تتعبينَ
هنا تزرعينَ على التلِّ شمساً
وسرْواً هنالكَ بينَ الشِّعابْ
***
ظلَّلَ الفجرَ حزنٌ..
خطىً تتناثرُ بينَ الخنادقِ
شمسٌ ممزقةٌ.. ورياحْ
واكتستْ طرقاتُ الرّمالِ بحفنةِ جمرٍ من الضِّلعِ قُدَّتْ
وأرعدتِ الرّوحُ
مثلَ عُقابٍ يُشَقُّ هنالكَ بينَ السماءِ وبينَ اندفاعتِهِ بالبروقِ
فأنّى توجَّهتَ لا شيءَ إلّا الجراحَ.. الجراحْ

كنّا نرى الآمرَ المُؤْتَمِرْ
يدورُ كعاصفةٍ بيننا
ويُجَمِّعُ كلَّ رصاصاتِنا
ثم يصرخُ: ها قد أطلَّ الصَّباحْ
ويشيرُ إلى جبلٍ من رمادٍ
ويصرخُ ثانيةً:
عندما تبلغُ الشمسُ قمَّتَهُ
يبزغُ الجنرالُ
ولا تجد الرّيحُ حين يباغتُها حجراً تستجيرُ بهِ أو جناحْ!
هلمّوا إذنْ
جَمِّعوا الطلقاتِ
فيصرخُ دَمٌّ على الرّملِ متَّشحاً بأساهْ:
تخافونَ جندَكُمُ؟!

ثم يصرخُ:
حينَ يكونُ العدوُّ أمامكَ موتاً بعينينِ وحشيتينِ
دماً أسوداً ظامئاً كالرِّماحْ
كيفَ يُجْمَعُ هذا الرصاصُ إذنْ
كيفَ يُخصى السِّلاحْ؟!
***
يقولُ الفتى:
جاءني النهرُ.. من آخر الأرضِ
ألقى السَّلامْ
فقلتُ ابتعدْ أيها النهرُ
ها أنتَ تعبُر بينَ الرَّصاصِ وبينَ الرَّصاصِ وحيداً كقلبي
ابتعدْ أيها النهرُ
هُمْ يطلقونَ الرّصاصَ عليكَ
وهم يطلقونَ الرصاصَ علينا
ولا يعرفونَ بأنكَ مِنّا!!
ابتعدْ أيها النهرُ
لكنه عادَ..
ألقى السَّلامْ
فأستظلّ المدى
برفوفِ الحَمامْ
***
هكذا صارَ يأتي إليَّ ويدعو دمي كي يُلبّي نداهْ
حالماً مثلَ طفلٍ
جسوراً كرمحٍ
ويعرفُ أن الفضاءَ مداهْ
بينَ موتين كانَ يسيرُ ويوقِظُ عشبَ الضِّفافِ وأشواقَنا
ثم يرفعُ كرسيّهُ في المياهْ
وحيداً

وما ضرّهُ أن يكونَ وحيداً
إذا كانَ كالبَدءِ نهراً إلهْ؟!
***
هكذا عرفَ النهرُ كلَّ الدُّروبِ
التي تنتهي في دمي والشجرْ
هكذا كانَ يرقصُ قربيَ مثلَ الغجرْ:
فرساً حرَّةً
وقرىً تمنحُ النَّجمَ –إن عَطِشَ الضوءُ–
فوق بيادرها حُلْمَها..
كي يرى دربَهُ في ليالي المطرْ
هكذا كانَ يدعو الطفولةَ فيَّ لكي تستحمَّ بأعراسهِ
هكذا كان يدعو ضلوعي ليملأني زنبقاً
هكذا كانَ يدعو رمالي ويمنحني وجهةً
هكذا كانَ يدعو خريفي
ويطعمني ثمرَ البرقِ من يدهِ
هكذا
كلما لحتُ..
جاء إليَّ..
ركضنا
التقينا
جرى في عروقي
وقالَ: أراكَ غدي.. وأراكَ
فمَنْ يفصِلُ النَّهرَ عن غدهِ؟!!
***
هكذا ابتدأتْ أولُ الكلماتْ
هكذا صارَ للشّوقِ شكلٌ.. وللحُلْم شكلٌ
وللبرقِ.. للمنزلِ المتصاعدِ في القلبِ نافذةٌ
وابتدأنا الحياةْ

هكذا صارَ لي أن أبوحَ بأسرارِ روحي لهذا الغزالِ
وأتبعهُ حيثُ شاءتْ بلابلُهُ
هكذا.. كان يفتتحُ الكونَ لي.. ونسيرُ:
– هنا أزهرتْ أولُ الكلماتِ على الأرضِ.. وانتشرَ الناسُ
كنتُ القصيدةَ والشاعرَ.. العرسَ
أغنيةً لنجومِ السماواتِ في مهْدِها
أنا النهرُ..
في الصَّدرِ نبضُ الحياةِ يرفُّ.. نخيلاً وطيرا
ولو لم أكنْ منذُ بَدءِ الخليقةِ نهرَ البراري
لأصبحتُ مُهرا!
هكذا كان يفتتحُ الكونَ لي ونسيرُ:
– هنا عبروني غزاةً
وعادوا حفاةً
هنا طوتِ الأرضُ أضلاعَها ثم جاءتْ إليَّ
فكانَ النخيلُ وكانَ العنبْ
وهنا في الصُّعودِ إلى قممِ الريحِ
أصبحتُ للعشبِ أُمّاً وأبْ
وهنا أرضُ أهلكَ.. من مطلع الشمسِ حتى الغضبْ

كان يعلو كأجنحةِ الأزرقِ الحُرِّ
يهوي كصقرٍ
ويصعدُ ثانيةً كشهيدٍ
ويصمتُ حتى أرى فيه (عكّا)
أناديه:
يا أيها النهرُ، مالي أراكَ إذن تنتحِبْ
وأمسحُ دمعاً جرى فوقَ خدّي
فأبصر خلفَ احتراقاتِنا مدناً
سيَّجتْها النياشينُ وابتلعتْها ذئابُ الرُّتَبْ

***

وطنٌ من عطشْ
تماثيلُ من ظلمةٍ.. فزعٍ.. ورمالْ
أين يكمنُ نَبعُ الجوابِ
إلى أين يُفضي السؤالْ؟!
هدأةٌ..
والعواصفُ موتٌ مقيمٌ
شقوقٌ تؤدّي إلى الروحِ
زمرٌ قتيلٌ على الشرفاتْ
وشوكٌ تكاثرَ أسودَ شقَّ ضلوعَ الغزالْ
وطنٌ عطشٌ
ويطالعكُ الموتُ في كلِّ زاويةٍ
حاملاً صولجانَ الهلاكِ يدقُّ نوافذَنا مُنشداً:
– فلتكنْ رايتي بينكم نجمةً
ولتكنْ خطوتي للطيورِ احتفالْ

ويطلُّ إذنْ (سيدي) الجنرالْ!
قامةً بارتفاعِ انكساراتِهِ
وثلاثةَ أوسمةٍ تتلألأُ
حين تساءَلتُ ما بينَ نفسي ونفسيَ
في أيِّ حربٍ جَنَى (سيدي) مجدَهُ
واكتسى كلَّ هذا الجلال؟!!
تأمّلني وكأني قتيلٌ صحا بعدَ مقتلهِ عارياً
فارتدى من ثياب الغصونِ الظِّلالْ
قالَ لي:
– أيها العسكريْ مَنْ تكون؟!
– دمٌ نازفٌ.. رئةٌ للنِّصالْ!
– مطيعٌ إذن أنتَ.. تعرفُ أني قديرٌ أُبدِّلُ حالاً بحالْ؟

- نعم.. وأرى الآنَ أعداءَنا فزعاً طائراً
ظلُّهمْ قبرُهمْ
وأرى موتَهمْ
فوقَ أكتافِهمْ
واضحاً كالجبالْ!
– وماذا ترى الحربَ؟
– فرٌّ.. وفرٌّ!
ومَنْ لمْ يَمُتْ في السِّجونِ
نهيئْ له ميتَةً في النِّزالْ!
– وماذا ترى السِّلْمَ؟
– كرٌّ.. وكرٌّ!
ومذبحةٌ للخيولِ وبوابةُ الاغتيالْ!
– وماذا تقولُ إذنَ في الخنادقِ؟
– عارٌ إذا احتُلّتِ الأرضُ.. عارٌ
وعارٌ.. ويُحتَلُّ فيها الرِّجالْ!
لحظةً..
ثم يصحو الفتى
لحظةً..
ليس ما قلتُهُ غير ساريةٍ في مهبِّ الخيالِ
الخيالِ.. الخيالْ
ويغيبُ إذن (سيدي) الجنرالْ
ولكنه قبلَ أن يرتقي سُلَّمَ العَرَبةْ
في ظهيرةِ هذا الدَّمِ اللّافحةْ
يتلفّتُ نحوي
ويصرخُ: يا أيها العسكريّ
كلُّ من حَدَّثَ النّهرَ أو صافحَهْ
سيكونُ له الموتُ والمذبحةْ!

– هكذا كانَ يأتي ويذهبُ
لا شيءَ يبقى هنا بيننا منهُ إلّا رتابةُ وقْعِ النِّعالِ
تدورُ الظلالُ.. الظلالُ.. الظلالْ
وتنتشرُ الشّمسُ داميةً
ويعودُ لنا (سيدي) الجنرالُ بمجدٍ جديدٍ
فنسألُ من أينَ؟!
يهمسُ حارسُهُ بانفعالْ:
لسيِّدنا نجمةٌ ووسامْ
كلّما مرَّ عامٌ بغيرِ قِتالْ!
***
فَجَّرَ البرتقالةَ حزنُ الفتى
أيقظَ النارَ في ثلجِ هذا الرّمادْ
أيقظَ الكونَ في السّاعةِ الحجريَّةْ
عندما كانَ يمضي إلى أمِّهِ
ويُخلِّفُ في الخندقِ البندقيّةْ
عندما كان يمضي إلى مدنِ القهرِ أعزلَ
لا شيءَ يشبهُهُ غير سوسنةٍ في دماءِ الضحيّةْ
يودِّعُ نهراً
يُجمِّعُ أعضاءَهُ والثيابَ
ويومينِ
يركضُ مبتعداً
ويمتدُّ فَجْرُ الإجازةِ أسودَ
هل كنتُ نفسي؟!
ومن ذلك الرجلُ المختفي في الهُويَّةْ
يسكنُ الملحُ حَنجرةَ الأغنياتِ
ويبتلعُ (الأوفَ) والأبجديّةْ
ويغمرُ لهفةَ أشجارِهِ
للولادةِ فوقَ الذُّرى والتّكاثرِ في قممٍ قربَهُ.. وقصيَّةْ

أيقظَ البرتقالةَ حزنُ الفتى
كستناءَ التآلفِ.. لفحَ المواقدِ.. زوبعةً في الجليدِ..
انفجارَ عروقِ الحدائقِ في الهذيانِ وفي رحْمِ ليلتهِ الشتويّةْ
من أي منعطفٍ أبرقتْ ظُلَمَةٌ
وانثنتْ زهرةٌ في الرّؤى مذبحاً
وهوتْ تربةٌ تحتَ أقدامِهِ
ورأى الجنرالَ ببابِ مدينتهِ حاجزاً للرصاصِ
وقيداً يصدُّ الهواءَ بقامتهِ الدمويّةْ؟
فَجّرَ البرتقالةَ حُزنُ الفتى
فَجّرَ البرَّ والهدأةَ الحجريّةْ
منذ عشرينَ عاماً
أُساقُ إلى متحفِ الصَّمتِ والجثثِ العسكريّةْ
كي لا أرى أنني ساكنٌ منذُ عشرينَ في حدقاتِ الضحيّةْ
أمشي وتمشي معي
فهي ظلّي
وفي الليل حينَ يَعُمّ الظلامُ وتخبو القناديلُ
ندخلُ في جسدٍ واحدٍ
منذ عشرينَ.. أُحفظُ في عُلَبٍ
وتُسمّى الخنادقَ
والحربُ فرٌّ وفرسانُها للكلاب مطيَّةْ
منذُ عشرينَ تُعصبُ عينيَّ بالنهرِ والذِّكرياتِ
لكي لا أرى كيفَ يزدردُ الذّئبُ حُلْمي
وشمسَ القرى والمدائنِ
بالسوطِ حيناً
وحيناً بطلقتهِ والشّظيّةْ
ويمنحُ تجارَها بعضَها
ولمخلبه حلْمَها والبقيَّةْ
فَجّرَ البرتقالةَ حزنُ الفتى

كانَ أعزلَ في ليلةٍ عربيّهْ
أدرك السرّ:
عندَ الإجازةِ لا يرتدي العسكريُّ سوى ثوبهِ العسكريِّ
ويخلعُ في الخندقِ البندقيّةْ!
***
.. وفي لحظةٍ تشبهُ العمرَ
كان يرى روحَهُ عزلةً
ويرى مهدَهُ مشنقةْ
ويجاهدُ في حُلْمِهِ حُلْمَهُ وهو ينحتُ من شوكهِ زنبقةْ
تشرقُ الشمسُ
هل أشرقتْ هذه الشمسُ؟!
أمْ أنَّ ضوءاً هنالكَ بين الضلوع انتشرْ؟!
تشرقُ الشمسُ..
هل أشرقتْ هذه الشمسُ؟!
أم أن مُهراً هنالكَ بين الضلوعِ نَفَرْ
فرأى ما رأى:
ألفَ دبابةٍ تستبيحُ الذُّرى
ورأى الجنرالَ على رأسِ مائدةٍ
يتهيأُ مبتهجاً لالتهامِ القرى
ورأى مدناً تُشتري وتُباعُ..
رأى شهداءً.. وخلفهُمُ في الظِّلامِ الزنازينَ والمُخْبِرا
ورأى ما رأى
كلّ شيءٍ هنالكَ فوقَ الجدارْ
واضحاً
والهواءَ دَمَاً طائراً
ورأى ما رأى
كلما سكتتْ فُوَّهاتُ البنادقِ
تغدو خنادقُنا مَتْجَرا!

.....
كانَ يخطو ليعبُرَ أحزانَهُ
أشرعَ البابَ
أشرقتِ الشمسُ؟
أم أن جرحَ البلادِ انفجرْ
هكذا فجأةً
بين عينيهِ نهراً من الحزنِ أو من دماءِ البشرْ
أغلقَ البابَ.. سارَ
الخُطى.. والغيومُ موزَّعةٌ في سماءٍ محاصرةٍ
والشبابيكُ محمومةٌ.. والمطرْ
ورأى ما رأى
زلزلَ الحزنُ أوتارهُ
فتعالى الهتافُ
وزُلزِلَت الأرضُ..
فاندفعتْ خلفَهُ قدماهُ!!
تعالى الهتافُ:
– أيا أيها السّامعونَ هنا
أيا أيّها النائمونَ هناكْ
الشوارعُ محتلَّةٌ والبيوتُ.. الأصابعُ.. والحُلْمُ..
والأمنياتُ
الزهورُ البراعمُ والشرفاتُ
الأحاديثُ محتلَّةٌ.. والصّلاةُ
الرغيفُ.. الحدائقُ.. والأغنياتُ
الحياةُ المماتُ..
المماتُ الحياةُ
عيونُ الصغارِ.. الظلالُ.. النباتُ
المواعيدُ.. والريحُ.. والسّارياتُ
نشيدُ البلادِ.. المدى النشراتُ

الصحيفةُ محتلّةٌ.. والكتابْ
كلُّ هذا الغيابْ
كائنٌ في دمي
كلُّ هذا الغيابْ؟!
جمرةٌ ولكيْ لا تكونَ أهالوا عليها الخرابْ
غائبٌ يومنا
عرسُنا غائبٌ
حاضرٌ سجنُنا
موتُنا حاضرٌ
والثواني كلابْ
كلُّ هذا الغيابْ؟!
مدنٌ قبلَ أن تتساءلَ يأتي إليها الجوابْ
عسكراً.. وزنازينَ
سيفاً يحزُّ المدى والرِّقابْ
كلُّ هذا الغيابْ؟!
ونحاولُ أن نلِجَ الدَّندناتِ
فيخرجُ أكثرُ من جنرالٍ بألفِ مُكبِّرِ صوتٍ:
تحبونَ هذا الترابَ إذنْ
فكلوا واشربوا وحْلَ هذا الترابْ!
كلّ هذا الغيابْ؟!
مهرةٌ في المدى
وأرى حولها عشراتِ الذئابْ
كلّ هذا الغيابْ؟!
مدنٌ والشبابيكُ فيها حِرابٌ
وجدرانُها.. والسّقوفُ حِرابْ
كلّ هذا الغيابْ؟!
فمن أيِّ بابٍ ستدخلُ شمسُكَ
من أيِّ بابْ؟!

***

... وراحَ الفتى يصعدُ التلَّ شمساً
ويخترقُ السَّهلَ رُمحاً
ويمتدُّ خيطاً من الدَّمِ يَجمَعُ حُزنَ القرى وانكسارَ المدنْ
ويجمَعُ هدهدةَ الفقراءِ لأطفالهمْ في السريرِ – الكفنْ
وما خبّأتهُ عيونُ العصافيرِ والأمهاتِ
غداةَ المذابحِ مما تبقَّى لهذا الوطنْ
... وراحَ الفتى يصعدُ التلَّ
كان يرى كشهيدٍ
فتصهُلُ فيه الخيولُ
وتتبعه للمياه القرى
ثم تأوي إلى مقلتيه الحقولُ
رأى النّهرَ يأتي إليهِ ويفتتحُ الأرضَ
يهمسُ في دَمِهِ: فلتكنْ توأَمي
هنا أصعد التلّ.. أخترقُ السَّهلَ
ما الماءُ إلاّ رحيقُ دمي
فلتكنْ توأمي
قد ضحكنا معاً، وبكينا، حَلُمْنا، قُتِلنا معاً
وها انني الآنَ أُبصرُ خلْفَكَ أشجارَ..
أزهارَ هذي السّهولْ
وها انني الآنَ أفتحُ صدري لألقاكَ
هذا أوانُ الحُلولْ
فلتكنْ توأمي
واغمُر الضِّفتينِ بزهرِ دمكْ
فالنهرُ مذْ كانتِ الأرضُ والحُلْمُ
والرّيحُ والقممُ الباردةْ
يَقسِمُ الروحَ نصفينِ للضِّفتينِ
وهل يصبحُ النهرُ نهراً إذا ما

تجَمَّعَ في ضفةٍ واحدةْ؟!
قُلْ لهمْ: صمتكمْ عاركم
والشّهادةُ ليست فضيحةْ
لنُخبئَها مثل عوراتنا
قُلْ لهم: إنها مجدُنا
وبها تتجمَّعُ في الرَّحمِ أسماؤنا لنكونْ
قُلْ لهم:
يرجِعُ الشهداءُ لأحلامِهمْ.. وطفولتهمْ
كي يكونوا لنا وطناً.. لا سجونْ
قلْ لهم: نحنُ قتلاهُمُ
قلْ لَهمْ:
ولكنهم وحدهَم ميِّتونْ
***
كانَ يركضُ للنهرِ..
والأرضُ تسمعُ وقْعَ خطاهُ على صدرها مطراً
فتهيئُ وديانَها ورؤوس الجبالِ
وغدرانها لاحتضانِ المواسمِ زهراً وقمحا
وكانتْ تهيئُ أولادها للأغاني
وتَهمسُ في قلبهمْ:
– إذا قَلَّ ماءٌ
وعزَّ الرَّغيفُ
ولم يدرِ مَنْ في المدينةِ أين سيقضي بقيةَ ليلتهِ
بينَ أطفالهِ.. أم هنالكَ في عتمةِ السِّجنِ
إذ يهدأُ الجرحُ.. يُملأُ مِلْحا
وطاردتْ الشرطةُ العسكريّةُ حُلْماً وصُبحا
فقوموا إلى دمكمْ واسرجوه
ونادوا شهيدَكمُ واتبعوه
ولينتسبْ طفلُكمْ للبلادِ كأمٍّ لَهُ

وقولوا له: إن هذا السِّلاحَ الذي يدفعُ الموتَ عنها أبوه

.....

كان يركض للنهرِ

لم يتَّسعْ دمُهُ للحديثِ

وكانَ يُحبُّ البياضَ كثيراً

لذا عندما غابَ

كانت رسالتُهُ للمدى.. صفحةً واحدةْ

وكانَ يرى الأزرقَ المطمئنَّ امتداداً لأحلامهِ السيِّدةْ

لم يتَّسعْ دمهُ للحديثِ

فهل تتسعْ

هذهِ الأرضُ للزَّهرِ

إذ يتفتَّحُ في جُرحهِ؟

كانَ يركضُ للنّهرِ

مُذْ صافحَ النهرَ

قال لهُ:

كيفَ أُصبحُ نهراً؟!

فقالَ لهُ النهرُ:

فلنتآخَ

انحنى خلسةً

قالَ للنهرِ: هذا دمي ثمَّ غابْ

وأصبحَ نهراً

وفي ليلةٍ باغتَ الطَّيرَ يغفو على غصنهِ

والزّنابقَ تغفو

ونجماً هنالكَ في الماءَ يطفو

ويغفو.. ويغفو

ولكنّه وحدَهُ ساهرٌ

قالَ للنهرِ: أصبحتُ نهراً

ولكنني منذُ أن حلَّ نبضُكَ في الرّوحِ يا صاحبي لم أنمْ
ضحك النّهرُ مبتهجاً حينها
ليلتينِ ويومْ!
وقالَ سريري هنالكَ في البحرِ.. والبحرُ أُمّ
وإذ تشرقُ الشمسُ
أرجعُ للأرضِ فوقَ سروجِ العواصفِ والغيمْ
هكذا كانَ يمضي إلى البحرِ نهراً
فتىً في اكتمال مواسمِهِ
وما كانَ للزَّهرِ أن يُصبحَ الزَّهرَ
إلاّ إذا قامَ من دَمِهِ
هكذا عادَ من حزنِهِ
واحتشاد خطاهُ على التلِّ والسَّفحِ
من عَطَشِ الكفِّ للبندقيّةْ
.. جَمِّع الطلقاتِ.. وجَمِّعْ خطاكَ
سيمتدُّ ليلٌ ونومٌ
على عسكرٍ في الكمائنِ قتلى
وتمتدُّ أرضٌ لتغدو التلالُ الجبالُ.. الشّعابُ.. ثياباً وظلّا
سيمتدُ ليلٌ.. وتعصفُ ريحٌ.. تخبئُ جبهتكَ القمريّةْ
وآثارَ خطوتك القرويّةْ
ويأوي هنالك ذئبٌ إلى روحهِ موحَشاً
وينامُ القطا
سيمتدُّ ليلٌ طويلٌ
لتشرقَ كالحبّ يا أيهذا الفتى
فاسمع النهرَ يدعوكَ:
كنْ أيها الحُلْمُ نصراً
ويدعوكَ
كن أيها النّصرُ فجراً
ويدعوكَ

كن أيها الفجرُ مُهراً
ويدعوكَ
كن أيها المهرُ نهراً
ويدعوكَ
كن أيها النهرُ بحراً
ويدعوكَ
كنْ عودتي لاكتمالي
وكن عودتي لحنيني
واقتربْ شجراً
واقتربْ ثمراً
واقتربْ قمراً
واقتربْ حُلُماً واسعاً لا يُحدُّ ويَجْمَعُ أطراف هذي البلاد
ستحرسُ عينيكَ كلُّ الصبايا اللواتي وَرَدْنَ دمي وعيوني
اقتربْ
قلْ لهذا الذّراعِ الذي بعثروهُ
ولما يزلْ باحثاً عن بقيةِ جثتهِ
قلْ لهذي الأيادي التي قطعوها
ولمّا تزلْ تَحفرُ الأرضَ باحثةً عن بقايا السّلاحْ
قل لخمسينَ ألفَ قتيلٍ هنا
في يديهمْ مفاتيحُ شَمسِ الصباحْ
وقلْ للضجيجِ.. وقلْ للسّكونِ
وقلْ لربيعِ الدِّماءِ
وقلْ لخريفِ الإماءِ
وقلْ للشتاءِ.. وللصّيفِ
قلْ لي أنا النّهرُ أيضاً
وقلْ لي..
وقلْ للحياةِ على ضفتيَّ:
أنا النّهرُ أدعوكِ هيا.. فكوني

.....

اقتربْ

واحترسْ

وارفعِ البندقيّة

مَكِّنْ خطاكَ من الضوءِ

مَكِّنْ دماءكَ من شمسها

إنكَ الآنَ في القلبِ.. في المنتصفْ

حولكَ الماءُ

أم أنكَ الآنَ حوليَ نهرٌ؟

وأنك للماءِ مهدٌ وسقفْ

إني أفضُّ لكَ الآنَ سرِّي

فقفْ لحظةً:

– كلّما جاءني الشهداءُ اكتملتُ

بهم أعبرُ السّنوات العجافْ

بهمْ تُزهرُ الأرض.. معنى الزَّفافْ

بهم لا أجفْ

وها إنني الآنَ أسمع زغرودةً

أسمعُ الآنَ عرساً

هنا.. وهنا وهنا.. فاستمعْ

ها نساءُ وأطفالُ

فرسانُ كلِّ الأناشيدِ فوقَ جبالِ (الكَرَكْ)[3]

يصيحونَ: يا أيهذا الفتى

نحنُ دوماً معكْ

دماؤك تُفضي إلى دمنا

وخطاكَ الطريقُ إلى حُلْمنا

خُضْ بنا البحرَ

خُضْ أَنهُراً.. ومدىً وَفَلَكْ

ها شوارعُ عمَّانَ تخرجُ من دفترِ الدَّمِ

من قبوها فرساً حرَّةً
من رصيفِ المآتمِ.. قبرِ المراسمِ.. تأتي إليكَ.. تُلبِّي دمَكْ
وتهتفُ: يا أيهذا الفتى
نحنُ دوماً معكْ
وها طفلةٌ من رغيفِ العذابِ
ومن غدِنا.. ورحيلِ السحابِ
ومن دفترِ الموتِ
من شارعٍ في الحصارِ الطويلِ.. ومن جوعها
من دمِ الشّوقِ ينبعُ في الكتبِ المدرسيّةْ
وها ساحلُ البحرِ بينَ الرّصاصِ ويافا يجيءُ
وتتبعه المدنُ الساحليّةْ
وهذا نشيدُ الشَّهيدِ
وهذا نهارُ الأغاني على ضفتيْ (طبريَّة)
وهذي مراكبُ حيفا
وهذي صواري (دلال)[4]
وهذا دمٌ يغمرُ الجنرالْ
وهذي يدُ الصحوِ.. تصحو
وتطرقُ جدرانَ ليلتنا العربيّةْ
وهذا صعودُ (الجليلِ) ليرتاحَ في روحنا
ودوالي (الخليلِ) التي تَنضجُ الآنَ في صدرنا
وصعودُ الصخورِ إلى الأجنحةْ
وهذي قبابٌ وأمنيةٌ
وسنابلُ حالمةٌ جارحةْ
كلُّها الآنَ تَعبُر نَهرَ الغيابْ
وينطلقُ الحُلْمُ حرّاً إلى رَحْمِهِ في السّحابْ
يفورُ الرصاصُ
هنا الجنرالُ أمامكَ.. خلفكَ
والبندقيةُ جاهزةٌ كاحتفالٍ

وهذا ذهابُكَ نحوَ الإيابْ
هنا البندقيةُ جاهزةٌ
يختفي الفرقُ بينَ الذّئابِ وبين الكلابْ
يفورُ الرصاصُ..
هنا أجملُ الكائناتِ معكْ
الخيولُ..
الحقولُ..
الذُّرى..
الشهداءُ..
المحبُّونَ والأنبياءُ
كأنكَ نَهرٌ
أنا النهرُ أخرجُ مثلَ الصِّغار لكي أتبعَكْ
ويفورُ الرصاصُ
يغطي المدى الآنَ سربُ حَمامْ
وينفضُ عن كتفيكَ الظّلامْ
فتعبرُ من بينِ نيرانِهمْ
ثم تمضي إلى البحرِ
نمضي معاً
وأرى البحرَ بينَ يديكَ ينامْ

1986

ـ أوراق من مفكرة شارع عربي خلال الانتفاضة

أقفرتُ مثلَ برارٍ مُعَلَّقةٍ في الزّوابعِ والقيظِ
مثلَ جدارٍ تداعى
وزنزانةٍ لا تتوبْ
وأقفرتُ حتى رأيتُ المدى جثةً
والعصافيرَ غارقةً في الذّنوبْ
وأقفرتُ من أيِّ معنىً
كأنَّ سلالةَ هذي الكواكبِ – في جسدي– تنتهي
وجذورَ حقولي هباءْ
وأقفرتُ حتى تيمَّمتُ بالحزنِ
عزَّ الترابُ.. وعزَّ النشيدُ وعزَّ الهواءْ
وأقفرتُ هذي حدائقُنا
وزهورُ الصّواعقِ في صوتِنا
شربَتْ عتمةَ النّفطِ
حبرَ الجرائدِ
هذا الفراغَ المُسمَّى بلاداً
وهذا الثُّغاءَ المُسمَّى غِناءْ
وأنكرتِ الضَّوءَ
أنكرتِ الطيرَ والغصنَ
أنكرتِ الجرحَ
حتى مررتُ به عارياً
والمساءُ مساءْ
فناديتُ: يا أيها النّائمونَ
أما مِنْ جوادٍ هُنا يتقدَّمُ
كي يسترَ الآنَ هذي الدِّماءْ؟!

***

منذُ أن هبَّتِ النارُ في جبلِ النار

في نجمتينِ تجوبانِ أغنيةً ونهاراً
وفي نورسٍ عاصفٍ
وسناسلَ مزهَّوةٍ بحجارتها
وجراءةِ زنبقها والعَلَمْ
كنتُ أَرقبُ في الناسِ
ما سيقولُ النهارِ
وما سَيُسِرُّ الحُلُمْ
وكعادةِ كلِّ شوارعنا العربية منذُ سنينٍ..
تعِبْتُ
استندتُّ الى جذعِ روحي وهذا الهواءِ الهَرِمْ
قلتُ : فلتعصفِ الرِّيحُ
ما شاءَ للرِّيحِ هذا العَدَمْ
فما أنا لحمٌ.. وما أنا دَمْ!
ولتعصف الرّيحُ ثانيةً
فلا أحدٌ ينشرُ الآن حُمّى السّؤالِ ليسألَ:
كيفَ تكونُ القبورُ لنا والحياةُ لهم؟!
وكيفَ يكونُ المحقِّقُ يا سادتي عربياً
ونحنُ العَجمْ؟!
وكيف يراقبنا الجنرالُ من الشّرفاتِ
بعينيِّ سِكِّينَةٍ ها هنا
وكأنّا غَنَمْ؟!
ويبقى البريءَ الوحيدَ
وسيافَ أعناقِنا المؤتَمنْ
ويبقى الحكيمَ
ويبقى الحَكَمْ!
هرِمتُ
فلم يعد البحرُ يَخفقُ فيَّ
ولم يعد الفرقُ فرقاً كبيراً

لنحزنَ إذ يُخلَطُ الماءُ بالدَّمِ
والدمُ بالكازِ
والحلمُ بالماءِ..
والكازُ بالدَّمْ!!
قلتُ: لم يبقَ غيرُ الجنونِ
وقفتُ وأرسلتُ ناصيتي في المدى صرخةً
قلتُ : أنتمْ.. هُنا.. يا بقايا إرَمْ!!
هل يغضبُ الشارعُ العربيُّ؟!
تقولونَ: لا !
سأقولُ: نَعمْ!
سيُطلقُ بعضُ البكاءِ دمي
وحجارةَ هذا الرّصيفِ الثقيلِ
انطفاءَ السُّكونِ.. وهذا الصممْ

تعلَّمتُ فيما تعلَّمتُ في غرفِ الدَّرسِ
لجمَ الجراحِ لئلاّ أُشمِّتَ فينا العدوَّ
ولجمَ الألَمْ!!
وكانَ المعلِّمُ يا سادتي جنرالاً
عصاهُ مجنزرةٌ من بقايا هزائِمِ قوَّادهِ
وبعضُ الهزائمِ كالانتصاراتِ
فيها الرِّضا.. فهطولُ النِّعَمْ!
فناديتُ آخرَ جرحٍ تكلَّمَ في طرقات (أريحا) وأزهرَ
يا توأمَ الشَّمسِ والبرتقالِ
إليَّ بجرحي ... وهذا القَلَمْ
سأكتبُ مالم تقلْهُ الجريدةُ
ما لم يقلْهُ الخِطابُ
وما لم تقلْهُ الإذاعةُ
ما لم يقلْهُ الخفيرُ المعتَّقُ في مهرجانِ التّضامنِ!

ما لم يقلْهُ البيانُ المنمَّقُ
يتلوهُ بعدَ ولوغِ الجريمةِ في دمِنا ببغاءٌ صَنَمْ
***
مطفأٌ مثل ذكرى مكبَّلةٍ بالمقابرِ أَعبرُ هذا المدى
ها هنا مدنٌ تترامى
قرىً تتآكلُ.. صمتٌ
غيومٌ مجفّفةٌ
كوكبٌ هَرِمٌ مائلٌ للرَّدى
كلُّ هذا الحديثِ الذي لا يَصبُّ
هنالكَ في وردةٍ أو حَجرْ:
مدائحُ في موتنا والعِدَا
صمتُ هذا المذيع.. ابتسامتُهُ
ياقةُ الجنرالِ ورتبتُهُ ونياشينُهُ
من جِنودِ العِدا
والسّجونُ الحديثةُ
وجهُ المحققِ..حنْكتُهُ
في انتزاعِ البراءةِ من وجهِ أطفالنا
ومواكبُ كلِّ الطغاةِ وحراسُهمْ
فيلقٌ من جنود العِدا
التّاجرُ الألمعيُّ
وتزييفُ لونِ الغدِ العربيِّ
دمُ الصحفيِّ المُبَرَّدُ
والشّاعر السلطويُّ:
بنادقُ في يد جيش العِدا
كنتُ غنَّيتُ ذات صباحٍ
ولا أذكرُ الآنَ أينَ
وفجَّرتُ هذا الفضاءَ الكسولَ
وأشعلتُهُ فرقداً.. فرقداً

غامضٌ كلُّ شيء تقولُ الصحيفةُ.
لكنّه واضحٌ للعِدا!!
نزهةُ الطائراتِ العدوَّةِ في أُفْقنا والصَّباحِ
صعودُ تلاميذِ هذا المخيمِ نحوَ السّماءِ شظايا
وتوزيعُ لحم الضَّحيةِ
ما بينَ دبّابتينِ مُعرَّبَتينِ
هنا.. وهنا.. وهنالكَ
(كُرْمالَ) عينِ العِدا
سقطتْ هيبةُ النَّخلِ
ما مِنْ صهيلٍ ألوذُ بهِ
خندقاً – معبداً
سقطتْ مدنٌ وعواصمُ
لكنَّ قاتلَنا العبدَ لماّ يزلْ سيِّدا!!
(وفي كلِّ عرسٍ لهُ ألفُ قُرْصٍ)
ويصعدُ في كلِّ يومٍ علينا
ومن دمنا مُنشِداً.. مُزبِداً:
(أخي جاوزَ الظّالمونَ المدى)
وانتظرنا
انتظرنا
انتظرنا
انتظرنا
فلا حقَّ ذاكَ الجهادُ
ولاحقَّ ذاكَ الفِدا!
***
ها هنا حَجَرٌ عربيٌّ
وفي كفِّ طفلِ الجليلِ المحاربِ –يا سادتي– حجرٌ عربيّ
كيفَ يُوقِفُ دبابةً في (الخليلِ)
ويبقى هنا هَرِمَاً أو خَصيّ؟!

وحليبُ الوكالةِ والقهرِ
كنا شربناهُ صِرفاً
فكيفَ يشبُّ الفتى في (بلاطةَ) مُهراً
ويبقى هنا ولداً ورخيّ؟!
وقاتلُنا واضحٌ هاهنا وهناكَ
فكيفَ يظلُّ هنا سادتي
–رُغمَ أن الدماءَ تُشيرُ إليه– خَفيّ؟!
آهِ من هذه (البينَ بَيْنْ)
تدكُّ دمَ الوردِ فينا
وتلفظُنا كبغيّ
كلّما سطعتْ نجمةٌ
(دَشَعَ) الحرسُ الأَجنبيّ
لتظلَّ الخلافةُ دِيْنَاً
ودُنيا المدى الشَّبحيّ
كلما سُحقتْ طفلةٌ
عرَّشتْ خوذةُ العسكريّ
كلما رجعتْ طائراتُ العدوِّ
إلى وكْرها من سماءِ المخيمِ
أو من سماءِ الدِّمِ العربيّ
أعلنتْ جنرالاتُنا حُسنَ سيرتِها
والسّلوكِ
وباركتِ الطائراتِ المغيرةَ
دقّةَ أهدافها في الصِّغارِ
وأنعشَها المشهدُ الدَّمويّ
وهيَّأتِ النفسَ من فورها
لوسامِ البطولةِ
في عيدِ أعيادنا الوطنيّ!

***

تشَّهيتُ خيطاً من الضّوءِ
بعضَ الهتافِ باسم البلادِ
أو اسم الأغاني
أو اسم الشّجرْ
تشَّهيتُ أن يسقطَ الخوفُ فينا
ويغسِلَنا من زنازيننا
مطرٌ أو قمرْ
تشَّهيتُ خيلاً من الرِّيحِ
تعبرُ هذي العروقَ
وتكنُسُ هذا الفراغَ المعرِّشَ في كلِّ شيءٍ..
وهذا الخدرْ
تشَّهيتُ حتى عبرتُ البلادَ
من الماءِ للماءِ
أبحثُ في دمنا ثم أهذي
أرى ما أرى من مَواتٍ
طحالبَ تجتاحُ راياتِنا
وتُمنّي بنادقَنا المُفرغاتِ بيومِ الظَّفَرْ!
تشّهيتُ إذ يسقطُ الحاكمُ العربيُّ
وإذ ينحدرْ
أن يهبَّ الترابُ ليصعدَ
من وحلِ هذي الحُفَرْ
وأن يُصبحَ الشَّعبُ
لا حاكمَ الشَّعبِ كفَّ القَدَرْ
تشهَّيتَ يوماً تكونُ الشوارعُ فيهِ –ولو ساعةً– للبشرْ
وأن يبدأَ الآن عُرسٌ
على أعينِ المخبرينَ
ونُعلِنَ ملءَ دمٍ عربيٍّ
بأنّا هُنا سنزفُّ الحَجَرْ

1988

ـ الطائر

ها هو الكونُ يصعدُ من حُلُمٍ غامضِ
وبقايا مساءٍ طويل
أُحدِّقُ من قمةٍ
أتساءلُ:
هذا الضّبابُ ابتداءُ التفتُّحِ في الكائناتِ الوحيدةِ
أمْ قبّعاتُ النخيلْ؟
خطوةُ الصمتِ أسمعُها
ودبيبُ الكلامِ الذي في الصّدورْ
تكوَّنتُ قَبلَ اكتمالِ الحقيقةِ في الناسِ
لي لغةٌ
حينما أزهرتْ
أسلَمتْ موجَها لغنائي البحورْ
تشرقُ الشّمسُ
أُطلقُ أُنشودتي وأُسمي النهارَ نهاراً
وأُشعلهُ بهجةً وحضورْ

أُحدّقُ من قمةٍ فأرى الناسَ تسعى طيوراً
هي الأرضُ.. كانتْ سمائيَ منذُ وُلِدْتُ
وكانَ الفضاءُ طريقي وحقلي الذي أتناسلُ فيهِ
وأزرعهُ بالأغاني
وهذا جناحيَ قد كانَ في البدءِ بعضَ الأماني
تدورُ الليالي..
وتعلو بيَ الأرضُ.. أعلو بها
وتظلُّ مُعلَّقةً في زماني
تدورُ الليالي
تدورُ الليالي

وأعرفُ هذا المدى مثلما أعرفُ الفجرَ.. والحقلَ.. والسنبلةْ
أقبضُ الكلماتِ.. وأنثرها
ولكمْ تيهكمْ في مدى الأسئلةْ
أسئلةْ!!
أسئلهْ!!
السؤالُ هنا رابضٌ في المساءِ كذئبٍ
هنا رابضٌ في الضّلوعْ
وفي رجفةِ الغصنِ
في أُفُق لا يراهُ الشجرْ
والسؤال دَمٌ يتدفّقُ من كلّ رابيةٍ جدولاً من شررْ
ولي سرُّ كلّ الإجاباتِ
في كُتُبي تتهجَّوْنَ شكلَ الصواعقِ
أُولى الحروفِ.. وطعمَ الثمرْ
أنا طائرُ الشرفاتِ الخفيّةِ
سرُّ خطى الرّقصِ.. سرُّ الأناشيدِ
سرُّ اشتعالِ الحرائق في حجرينِ وفي زهرتينِ
سأمضي أُقلِّبُ هذي السماءَ وأزرعها زُرقةً ومطرْ
حدّقوا بي.. سيعرفني حُلْمُكمْ
فأنا روحُ أوّلِ أُغنيةٍ
خيّمتْ حولها قممٌ وسفوحٌ.. ظباءٌ.. خيولٌ
وفيها تكاثرَ كلُّ البشرْ
***
هنالكَ حيث المدى مهرةٌ
تشربُ الماءَ من غيمةٍ في الفضاءْ
وحيثُ الدّروبُ الصغيرةُ لم تُبتَكرْ بَعدُ والصّلواتْ!
اندفعتمْ إليَّ
وكنتُ على غصنِ زيتونةٍ أرفعُ الشمسَ فوقَ جناحي
أُعلِّقها فوقَ صدرِ الحياةْ

ناديتُ: يا أيها العابرونَ تعالوا إليَّ لنُسكِنَها
أُفقاً واسعاً في امتدادِ الأسنّةِ والفلواتْ
اندفعتم إليَّ صحارىً من الطينِ لا تعرف النبعَ والكلماتْ!
فَرَقّتْ لكمْ وردةُ الحبِّ
توَّجتكمْ بالصَّباحِ
وحينَ أتى البرقُ
قُلتُ: ادخلوا القلبَ
حين هوى الرّعدُ سيفاً
نَفَرْتُمْ
فجمَّعتكمْ تحت ظلِّ الجناحِ
وعلَّمتُكم كيفَ تنتشرون..
وكيفَ تعودونَ
كيف تحدِّدكمْ موطناً كلُّ هذي الجهاتْ
وفي غفلةٍ من عيونِ الزمانِ
دعونا التلالَ.. دعونا الجبالَ..
كَسَوناْ معاً عظْمَنَا أُغنياتْ!
وحين استوى العشقُ قمنا إليهِ
حملناهُ بينَ يدينا وسِرْنا
نُعمّرُ أرضاً..
ونرفعُ نجماً..
ونمضي خيولاً مُحلِّقةً، فوق كلّ الصِّفاتْ
فمنْ كسَرَ الرّوحَ في لحظةٍ
وانحنى
ودعا الإنحناءَ صلاةْ؟!

***

أقمنا على ضفةٍ ولقاءْ
وقلنا بأنَّ خطانا التي حملتْنا إلى الماءِ
لا لنْ تعودَ بنا للوراءْ

وفي ليلةٍ..
اجتمعنا هناكَ:
طيوراً.. أُناساً.. وبعضَ الظباءْ
واكتملْنا كنصفيِّ تفاحةٍ
واشتعلنا بحِكمتِنا فَوَردْنا المياهَ خِفافاً كنجمِ السماءْ
وشقّتْ أصابُعنا الصخرَ.. فانبجستْ وردةٌ
فاختلفنا:
سنأكلُها.. أم نقدِّمها.. ولأيِّ النساءْ؟!!
هو الرعدُ ثانيةً
فانحنيتمْ
صرختُ اصعدوا جبلَ الغيمِ نقتلعُ الرُّعبَ من جذرِهِ
فانحنيتمْ
عرفتُ بأن الجناحَ سيبقى لنا معشر الطيرِ
لا غيرنا
ولكم ظلُّكمْ عالقاً بخطاكمْ
كبحرِ الظلامِ وأوتادِ ثيرانكمْ والخيامْ!
***
هنالكَ حينَ فقدتُ ارتفاعاتِ قاماتِكمْ
واستحالتْ رؤوسكمُ حجراً بارداً في الرَّمادْ
ارتفعتُ
وماذا رأيتُ؟
رأيتكمُ موثقينَ إلى رعبكم في الوهادْ
وما من يدٍ تقبض الأفْقَ من عنقهِ فوقَ ظهرِ جوادْ
هَلُمي إليَّ اتبعيني منائرَ أيتها الرّوحْ
نُخلّفهُم حجراً في السفوحْ
نشيداً بلا شفةٍ ولسانٍ.. وحقلَ جروحْ!
اتبعيني هنالكَ أيتها الرّوحْ
سنأتي إليهمْ إذا ما تكاثرتِ الخيلُ فيهمْ..

بأُغنيةٍ.. ونجومٍ بعيدةْ
سنأتي إليهمْ نعلِّمهمْ
كيفَ تبني الطيورُ . وفي كلّ يومٍ . سماءً جديدةْ
ونأتي إليهم لنمنحَهمْ سرَّنا
فيكونُ الغناءُ لنا كلّنا
فاتبعيني إذن
سقطَ الليلُ من شرفةٍ قاحلةْ
سقطَ البرُّ والتّلةُ الآهِلةْ
ألفُ رمحٍ تدورُ هنا وتدورُ
وللقلبِ طعنتُها القاتلةْ
فاتركي السَّابلةْ!
أحاديثَ لم تشتعلْ نارُها
وسهوباً يروِّضهم مُهرُها
واهتفي كي تهزّ السّواحلَ نبضتُكِ الهائلةْ:
خانكمْ من بكى
خانكمْ من وقفْ
خانكمْ من هوى
في خطاه وجَفْ
خانكمْ من سقطْ
في هوى المنتصفْ
خانكمْ
خانكمْ..
***
تدافعتِ الريحُ في صدركمْ
صهلتْ مهرةٌ.. هدرَ النهرُ
كلٌّ له لغة.. ولكمْ صمتكمْ!
وكلٌّ له شمسُهُ.. ولكمْ ليلكمْ!
ستفرُّ المعاني طويلاً لأنّ الكلامْ

حائطٌ غامضٌ لا تحيطُ به اليدُ
متَّسعٌ.. صامتٌ تتكسَّرُ فيه السِّهامْ
جسدٌ لا يُرى..
ورسائلُ من لا مكانٍ يجيءُ بها ألفُ سربِ حَمامْ
فماذا تقولونَ في لغةٍ فضةٍ ورخامْ
وخمسونَ بحراً تهزُّ حناجرَكمْ
وتبعثرُ أجسادكمْ
شيِّدوا لغةً واستروا روحَكمْ
لا سطوحَ نخيلْ
فإن الطريقَ إلى حُلْمنا
موحشٌ وطويلْ
ارتفعتُ بعيداً
وطفتُ السماواتِ سبعاً
فأيقظتُ خلفَ الجبالِ القرنفلَ
حرَّضتُ نخلَ الصّحاري وصفصافَ وديانِ أرضِ الشمالْ
وإذ عدتُ حاصرتُكمْ بالسؤالْ
وانتمْ تدورونَ حول خطاكمْ
تدورونَ..
لم تعرفوا بَعدُ أن الدّروبَ ارتحالٌ جديدْ
تدورونَ
لكنّها الرّوحُ مشدودة لضلوع الإقامةْ
كأنكمُ منذُ بدء الخليقةِ
تنتظرونَ على سَفرٍ أن تقومَ القيامةْ!!

***

كلما أوشكَ الأُفق أن ينتهي
صاحَ تلٌّ ورائي
كأني نسيتُ عليه دمائي
.. وعدتُ إذنْ مرةً ثانيةْ

.. وأتيتُ إليكمْ
هززتُ يداً.. كتفاً.. غفوةً.. جثةً كاملةْ
ما تحرَّكَ فيكمْ صدىً أو أحدْ
قلتُ هذي بدايةُ عودتكم للترابِ
صرختُ: انهضوا.. يا جسدْ!
واجمعوا حُلُماً واحداً كي أراكمْ
صرختُ انفِروا في البراري انفِروا
وهزُّوا المداراتِ كي تكبُروا
ولفّوا الجداولَ والأنهرَ الجارياتِ على يدكم كالحبالِ
وقودوا البحارَ إلى مجدكمْ
واقطعوا رايةً من أعالي السماءِ
ومن موجةٍ جمحَتْ اِغزلوا بعضَ أثوابكمْ
وهاتوا يداً مثل حجمِ يديكمْ
ندقُّ بها الكونَ
يسّاقطُ الحبُّ في أرضكمْ
هل تريدون رُكناً
وهذا الفضاءُ الفسيحُ الأناشيدَ في دمكم؟!
هل تريدون درباً
وكلُّ الدروبِ تؤدّي إليكمْ
تصبُّ بكمْ؟!
وهذي النجومُ تدورُ..
وهذي الرياحُ تهبُّ..
الطيورُ تغني..
الينابيعُ تصعدُ من عتمةِ الأرضِ
مشدودةً لمداكمْ وإيقاعِ خطوتِكمْ؟
فانفروا كي تدورَ بنا الأرضُ
كي تُشرقَ الشمسُ ثانيةً
وتحارَ الكواكبُ في سرِّكمْ

***

من يطرحُ الآنَ أسئلةً ويهزُّ السكونْ؟
كائناً من يكونْ
غزالاً..حصاناً.. وأُغنيةً.. صاحباً لا يخونْ
سأقول إذنْ:
إن أوّلَ من قالَ إنّي تعبتُ
وفي غفلةٍ من خطانا توقّفَ
ما كان يملكُ قلباً ليسعى ولا قدمينْ
تحدَّثَ عاماً عن الارتفاعِ
وكيفَ يشقُّ الجناحُ طريقاً من السَّاعدينْ..
وهوى حجراً.. في التفاتةِ عينْ
سأقول إذنْ:
إن أول من شادَ نافذةً أغلقَ الأُفْقَ في وجهنا
ذبحَ الصُّبحَ في صدرنا مرتينْ
... ...
ها أنا الآنَ أُنشدُ أُغنيتي دامياً وغريباً
لأذكرها!!
ووحيداً لعلّ الغصونَ تجيءُ إليَّ مساءً.. تخبئُها
في ظلال الصنوبرْ
ها أنا الآنَ وحدي
وأُبصركمْ
تحبسونَ ارتعاشَ أصابعكمْ
تجمعونَ الغموضَ بصرختكم حولنا!
وأرى الشّمسَ في يدكمْ تتكسَّرْ
ها أنا الآنَ وحدي على قمةِ الكونِ
أُسندُ هذا المدى
ودمي نازفٌ يتعثّرْ
لا أرقُبُ الآنَ نجماً يُطلُّ

ولا عابراً يمسحُ الحزنَ عن خُضرةِ الرّوحِ
هذي حقولٌ من النارِ تنهضُ فيَّ
تحرِّضُ أرواحَكم ضدَّكمْ
ثم تحملني من رحيلي إليّ

أرى ما أرى ثُلةً من رجالٍ
وبعضَ نساء على السفحِ.. يحتشدونَ
لكي يوقفوا زحفَ أجسادهمْ نحو روحي!
هنالكَ..
لكنّها الريحُ ريحي
تهبُّ وتصعدكم أُغنياتي
وتصعدكمْ أنهُري وسفوحي
تصبُّ انطفاءاتكمْ في اشتعالي
حطامُ متاهاتكم في صروحي
وأنهضُ فيكمْ رياحاً
صباحاً
وأرتِقُ أرواحَكمْ بجروحي!
***
ويهدأُ جمرٌ
فأضحكُ
عمّا قليلٍ سيشتعلُ الماءُ
عما قليلٍ ستأخُذني من جناحي قفارٌ
وتُسلِمُني للذُّرى الصّاعقةْ
وعما قليلٍ سأطوي ندائي
وأعقدهُ حولَ حَنجرةِ الصّمتِ في ليلكمْ
مثلما يُعقدُ الحزنُ والمشنقةْ
وعما قليلٍ سأسألكم أن تُريقوا ظلالَكم الضيّقةْ
وعما قليلٍ سأصرخ: لا

منذُ مليونِ عامٍ أُسوِّرُكمْ بجناحي وأنفخُ في صدركمْ
ثم تجتمعونَ عليَّ
كأنّي اقتلعتُ جذورَ الكلامِ وخلّفتُهُ عارياً صوتَكمْ
منذُ مليونِ عامٍ أرى جسداً واحداً يتحصَّنُ بالخوفِ
حتى إذا جئتكمْ ذاتَ ليلٍ
وباغتّكمْ ساهرينَ
انتفضتمْ
ورحتمْ تلمّون –كي لا أراكمْ – على عجلٍ دفءَ خطواتِكُمْ
وقامَ فتىً
ثم دارَ عليكمْ
ليُطفئَ قنديلَ أرواحكمْ!!

***

ها هو الليلُ يصعدُ ثانيةً غابةً وسحاباً
يحاذي دمي الظبيُ..
يسألني
– هل تعِبتَ؟
– قليلاً
ويغمضُ عينيهِ يغمُرنا حزنُهُ–المطرُ
– سنتركهم لاشتعالِ دمِ الذّئبِ في الليلِ!
– لكنهمْ بشرُ!
– سنرفع راياتِنا والتلالَ ونمعنُ في الكون تتبعُنا
زهرة الشمسِ والظلُّ والشجرُ
– أيها الظبيُ لن أستطيعَ
- لماذا؟!
-هو الفجرُ يصعدُ هذي الجبالَ لأمضي إليهمْ.. أُحاربهم
– ولماذا؟ لماذا؟
– لينتصروا !

أيار . 1985

الـذئـب

يتفجَّرُ جوعٌ
تضيقُ به تَلّةٌ
ومساءٌ
تضيقُ الشِّعابْ
ويلمعُ محتقناً مثلَ نجمٍ
هوى فوقَ أكتافِ هذي الهِضابْ
يتفجّرُ جوعٌ..
فيستعرُ الدَّمُ
لا يطفئُ الموتَ ظلٌّ
ولا قمرٌ في البراري
ولا نسمةٌ أو سَحَابْ
يتفجّرُ جوعٌ
تسيلُ الدّقائقُ مذبوحةً.. ونداءُ الحياةِ
فَيُرعِدُ صمتٌ.. ويُبْرِقُ نابْ
يتدحرجُ ذئبٌ إلى السّفحِ
من جَرّحَ الصّوتَ في رئتيهِ وعبأَ نظرتَهُ بالحِرابْ
عطشٌ..
والبراري هنالكَ تمتدُّ
يبتلعُ الآنَ حَنْجرةً تتشقّقُ.. يعوي
يطاولُ قامتَهُ كي يرى الأرضَ.. يعوي
فيرتدُّ هذا الصّدى نازفاً
يقدحُ الصّخرُ تحتَ مخالبهِ
تتلهَّبُ أحزانُهُ والترابْ
– إيهِ يا جوعُ
كم أصبحَ الآنَ ظلّي ثقيلاً
أأحمِلُهُ؟

أم أسيرُ بلا جسدي
مثلما تعبرُ البرَّ خيلُ الصدى والضبابْ؟

يتوقّفُ..
هذي قرىً نائمةْ
ثمّ بعضُ رجال هنا.. ونساءٍ.. وأطفالهُمْ.. وامتدادُ اليبابْ
شجرٌ قُدَّ من حَجرٍ..
طائرٌ في المدى..
وجناحُ غرابْ
يتوقّفُ..
يبحثُ عن أيِّ شيءٍ يردُّ لهُ الروحَ..
يحملهُ مرّةً ثانيةْ
ليعودَ إلى جُحرهِ في السّفوحِ،
ويمعنُ في الحزنِ حتى الغيابْ
يتفجرُ جوعٌ..
عواءٌ كسيرٌ..
يُغيْرُ
فينبجسُ الآنَ خوفٌ
يفرُّ الصغارُ..
وتأوي النّساءُ إلى حُجُراتِ الدَّمِ المظلِمةْ
مَنْ يوقفُ الآنَ جوعاً تصاعدَ؟!
مَنْ يطفئُ الموتَ في لفتةِ الذئبِ
في صدرهِ المتداعي؟!
ولا شيءَ..
لا شيءَ يؤكَلُ
من يَفتحُ الآنَ للذّئبِ بابْ؟!!

لم يدرِ هذا الذي يجمَعُ الآنَ آخرَ أنفاسهِ
وبقايا انكساراتِ خطوتهِ

أن هذي القرى طفلةٌ صائمةْ
أكلتْ خبزَها وأصابعَها
.. قطعانُ تلكَ الذئابِ المنعَّمةِ النّاعمةْ
هنالكَ في طرفِ العاصمةْ
أكلتْ خبزَها وأصابعَها
ورمتْها إلى موتها والكلابْ
لم يدرِ ذئبُ الفلاةِ الغريبْ
أنها ابتلعتْ كلَّ ما في الخوابي
وما تركتْ لمخالبهِ غيرَ أهل القرى
والحقولِ الخرابْ
لم يدرِ ذئبُ الفلاةِ الغريبْ
أنه حَمَلٌ
بَينَ تلكَ الذئاب!

ـ القبر

الحِرابُ تجوبُ الشّوارعَ.. والنارُ متَّقِدةْ
تُخلِّفكَ الريحُ
لا يرفعُ الرّوحَ عن طينها غيرُ سقفٍ وأمنيةٍ سيِّدةْ
ها نحنُ نمضي
وهذا النهارُ بلا أسلحةْ
بلا زهرةٍ.. وبلا شرفةٍ
والمدى أعْتِدةْ
فأيُّ الزوايا ستجمَعُ أضلاعَ صدركْ؟
وأيّ الدّروبِ سيُفضي إلى قَلْبِ أمِّكْ؟

***

واحدٌ موتُنا
والجراحُ التي نتغافلُ عنها ترامتْ
وأغلقتِ الطرقاتْ
أَلا أيهذا القتيلُ توقَّفْ
لنبحثَ عن جثتي أوّلاً
ثم فلنكملِ الدَّربَ نحوَ المماتْ!
إلى أين تهربُ؟!
يا أيهذا القتيل توقَّفْ
جراحُكَ تتعبني، ويدايَ بلا أغنياتْ
مضى زمنٌ كنتَ توقظُ فيهِ البحارَ
وأرفعُ فيهِ الحياةْ
مضى زمنٌ
أنتَ لا تستقلُّ القطاراتِ والبحرَ وحدكَ
إني إذا أغلقتْ بابَها الرّيحُ أو أشرَعتْها
أصبحتُ في الأرضِ كلَّ الجهاتْ

***

وجْهَتي كانت الماءُ
هل أصبحَ النفطُ وجهي؟
وبوصلتي؟
ورحيلي؟
إلى مدنٍ يكثر القهرُ فيها
والشمسُ مطلوبةٌ للخَفرْ
وعلى بابها رفعوا جثةً.. كتبوا فوقها:
لا مكانَ هنا للشّهيدِ
ولا للبريدِ الذي يوصلُ الضوءَ للمنشدينَ
وصمتِ الوترْ
كيفَ تدخلها الآنَ يا صاحبي
عارياً.. عارياً.. في رداءِ المساءْ؟!
وماذا تبقّى إذنْ من غصونكِ؟!
قد سقطتْ وردةُ الكبرياءِ
ومن سوفَ يعرفكَ الآنَ منّا
أجبْ
حين تأتي إلينا بلا شهداء؟!
***
لماذا تُغافلني
لم أزلْ نازفاً كنهارٍ
ولم يأكل الدَّمُ نيرانَهُ
فالأصابعُ كالريح مشتعلةْ
والمنافذُ مرهونةٌ للقذائفِ
والحزنُ في جسدي سنبلةْ
والمدائنُ واحدةٌ حينَ تصبح يا صاحبي كلّها قاتلةْ
فتوقّف إذنْ
كيف نصبح اثنينِ يا صاحبي
وقد مزَّقتنا معاً قنبلةْ؟

***

هذهِ الأرضُ لم تتغيَّرْ كثيراً
هنا أفق.. وعواصمُ.. سجنٌ.. هنا مئذنةْ
وهنا جرسٌ.. حنْطةٌ في الوجوهِ.. هنا جثثٌ
وجنودٌ على شرفاتِ الدّقائقِ والأمكنةْ
وهنا طفلةٌ تستفزُّ الزِّقاقَ
وتمضي إلى غدها طاعنةْ
وهنا قاتلٌ كُلّما مسحَ الدَّمَ عن قدميهِ
مضى لاحتفالٍ
وفي جيبِ سترتهِ سوسنةْ!

***

ترتقي سُلَّماً في الضّواحي البعيدةِ
لا تُغلق البابَ
إني وراءكَ
ولتدع الضوءَ يمسحُ أحزانَ هذي الزّوايا
لا تُغلقَ البابَ
سوفَ أنادي دمي وألمُّ عليكَ الضّحايا!
لا تغلقَ البابَ
ولتتماسكْ
فإنّ النجومَ إذا سقطتْ
لا تعودُ إلى الأفقِ إلّا سبايا

***

ها هو الظلُّ يشربُنا
هل أقولُ بأنك ما عدتَ مُتعَبْ؟
أَمَ انَّ الخُطى ابتلعتْ بعضَها
وبأنكَ ما عدتَ تعلو.. وتضحكُ..
ما عدت تغضبْ؟
آهِ قل لي إذنْ

أنُغلِقُ باباً بوجهِ سنونو؟!
ونافذةً.. أو حديثاً أليفاً.. بوجهِ امرأةْ؟!
أنُغلقُ أجسادَنا ثم نُحْكمُ إقفالَ ظُلْمَتِنا المُقفِرَةْ
فماذا سيبقى إذن؟!
مقبرةْ؟!
وكيف يطاوعكَ القلبُ حتى تلوذَ هنا بالزّوايا
ولا تفتحِ البابَ
حين تـدقُّ علينا بخضرتها شجرةْ؟!
لم نأتِ للموتِ حتى نواري جثَّتنا
فانتشرْ
إن تقُلْ ليَ لا بدَّ من ليلةٍ
فلتكنْ ليلةً مُقمِرةْ
وليكن للعصافيرِ من صمتنا
غير صوتٍ تدحرج دمعتِنا
وليكنْ للصغارِ ملاعبُ.. لا هذه المجزرةْ
وليكن نجمُنا ساطعاً
سحقتْ قدمي ليلةَ الأمسِ حينَ تدافعتُ بينَ الجدارينِ
أكثرَ من نجمةٍ مطفأةْ
ولتكن نبضةُ القلبِ أوسعَ من نبضةِ الميِّتينَ
وأطرافُنا –حينَ نلمسُ حُلْماً فقدناهُ يا صاحبي– دافئةْ

***

أحلامنا مُرّةٌ، ستقولُ
فكمْ مرّ من زمنٍ بيننا والمكانْ
ضائعٌ في تفاصيلهِ،
والخطى، تتنقَّلُ في الليلِ خلفَ الزّمانْ؟!
ثمةَ صوتٌ يجيءُ من الرّوحِ
يوقظني في ليالي الصَّقيعِ
ويطلقُ في القلبِ ألفَ حصانْ

نوافذُ تأتي.. وأرصفةٌ
وأماكنُ منسيةٌ.. وأغانْ
– أتسمعُ؟!
– ماذا؟
– ثمةَ ريحٌ تنادي
وأزهارُنا السُّودُ تهتزُّ.. طاولةُ الخشبِ.. الورقُ.. الزاويةْ
وأقمارُ ليلتِنا العاليةْ
– أتسمع؟!
– ماذا؟
– شجرٌ يتجمَّع أو يجمَعُ الناسَ والأرضَ في السَّاحةِ الخاليةْ
....
وقمصاننا..
صحفُ الأمس تهتزُّ
ترفعُ أبراجَها ثمّ تُطلِقُ طعنتَها بيننا هاويةْ
– أتسمعُ؟
– ماذا؟
– صغارٌ هنالكَ تحتَ الشّبابيكِ..
عصفورةٌ
هلْ أطلّ النهارُ، فأطلقتِ الشمسَ
أم حملتْ مدناً نائيةْ؟!
ستائرنا.. والأصابعُ.. والعتمةُ الهاذيةْ
كلُّها الآنَ تهتزُّ
مذياعُنا.. وبقايا الشموعِ
وفي القلبِ قد كُسِرَتْ ساريةْ
عشرونَ ألفَ شهيدٍ يمرُّونَ
خطوتُهم صحوةُ الرّعدِ
لكنّ هذي المدينةَ في غيّها ماضيةْ
العيونُ تحدقُ فيهمْ

ولكنّها غافيةْ!
إنني أخُرج الآنَ يا صاحبي عارياً كالهواءِ
وفي الصدرِ فاضَ الدَّمُ المتكاثرُ كالحزنِ
ساقيةً
ساقيةْ
ثمةَ طعنةُ حقدٍ تنادي
وسكينُ غدرٍ
وفي الصَّدرِ جرحٌ يُلبي..
ليدفِنَها ثانيةْ!!

آذار 1988

ـ راية القلب

ضد الموت

إشارات

* تموز: قتله الخنزيرُ المتوحّشُ في الجبل.. ومن دمِهِ المهدور انتشرت شقائق النعمان، لذا فان عودتهُ موسمية. ولكنه أسلَمَنا الخيطَ الذي تتبعناه إلى أن أصبحت إقامة شهدائنا بيننا دائمة.

* جلجامش: بحث عن عشبة الحياة حتى وجدها. فغافلته الأفعى وسرقتْها، ولكننا منذ خمسة آلاف عام ما زلنا نقتلُ الأفاعي ونشهدُ موتَها، وما زال جلجامش يعيشُ بيننا.

* أور: مدينةُ جلجامش.. تبوحُ لنا بسرّها وتتجلّى كلما ارتفع منسوبُ الكرامةِ في دمنا.. فتكون أحيانا (عكا) الصامدة في وجه الحصار، وتكون حينا (يَعْبَدُ) التي تزهو بعز الدّين القسّام.. وتكون حينا بيروت.. وأور.. مثل كلّ البشر الرائعين.. لا تموت.. فالمدينةُ من لونِ البشَر.

* سُراقَة: أحد فرسان (قريش) الذين تابعوا النبي في هجرته إلى يثرب مع أبي بكر.. ليقتلهُ، التوظيف هنا ليس له علاقة بهجرةِ النبي.. ولكن له علاقة بالهجرة. لقد وعدَ النّبي سُراقةَ إن عاد بسوار كسرى، فعاد، وكان له بعدَ سنوات طويلة، وعلى الرغم من وعود كثيرة قطعتْها قصائدنا على نفسها، إلاّ أن سراقة القرن العشرين لا يعود ولكن كما تقول أمي (ذَنْبُه على جَنْبُه)!

* عوليس: بطل الأوذيسه.. ورحلة المهالك الطويلة باتجاه بلده، وصل في النهاية حياً، ووصلت (دلالُ المغربي) شهيدة، وفي البّر الفلسطيني كانت (لينا النابلسي) تشقُّ الطريقَ باتجاه السّاحل، الساحل الذي يُشكّلُ نقطةَ اللقاء الجميلة بالقلب.. بكاملِ الوطن.

* بدر: بدر شاكر السَّياب.. عقد حلفا مُعلنا مع تموز، حيث يخرجُ كلّ عام ليدعو شقائقَ النعمان... وما إن يُنشد قصيدتَهُ (أنشودة المطر) حتى تلبي نداءهُ كلُّ أزهار الكون... وهذا بالذات ما يدفع الموت إلى الانقضاض على الأزهار محاولا إخفاء جريمته.. وهذا هو السبب . ربما . الوحيد الذي يجعل أعمار الورد قصيرة إلى هذا الحدّ!

* عُمَر: حين وردَ اسم عمر في نشيد الطفلة في آخر القصيدة.. لم يجرؤ أحدٌ على أن يسألها من تقصدين بذلك؟ كانت على ثقة من نشيدها، ولكنها ربما كانت تقصدُ أحد العُمَرين: عمر بن الخطاب أو عمر المختار، أو عمر.. الطفل الصغير جداً.. المشاكسَ.. ابن جيرانها!

سأبدأُ هذا الصَّباحَ وأهتفُ: عِمْتَ ظلاما!
خطايَ تعودُ إليكَ كأنّي خرجتُ هنالكَ من صمتِ رحْمِكَ
أو أنني ما تَبعتُ الغَماما

إلى نخلةٍ شَكَّلَتنا حَمَاما
سأبدأُ هذا الصباحَ وأنسى مرورَكَ فيَّ
وأنسى أفاعي خطاكَ التي تَعبرُ الدَّمَ
أنسى... وأستلُّ قلبي حُساما
أنا خارجُ الأسودِ المترامي على سطحِ هذي القبورْ
أنا داخلُ الزّنبقِ المُتصاعدِ من ظلِّنا نحوَ عشبٍ ودُوْرْ
أنا خارجُ الدّاخلِ المتفجِّرِ
من جسدي هاربٌ ما تعوَّدتُ يوماً مُقاما
ولكنني الآنَ أمضي إليكَ.. وأبعُدُ عني
فمن يُوقفُ الآنَ خطوي لأسحبَ روحي بعيداً
وأَنصِبَها في الفلاةِ خياما
ويُلقي على كتفيَّ السَّلاما؟!

***

تَشهَّيْتَني عندما كنتُ طفلاً
ركضتَ معي
وقاسَمْتَني نصفَ خبزي
ونصفَ هوائي ونصفَ الدَّوالي
وقاسمتَني شعلةَ الفرحِ الأخضرِ.. الحُلْمَ
حتى إذا ما سألتُ.. اندفعتَ
وقاسَمْتَني دهشتي وسؤالي
ابتعدْ
قلتُ.. حينَ رأيتُ سواقي ظلامِكَ
خُصْلاتِ أشباحِكَ – الجندِ
قلتُ: ابتعدْ
وتقدَّمتُ نحوكَ يوماً.. سنةْ!!
وقلتُ: أبتعدْ
وملأتُ الشوارعَ بالشيطَنةْ
وقلتُ: أبتعدْ

وامتطيتُ الأناشيدَ كالأحصنةْ
وقلتُ: ابتعدْ
وتقدَّمتُ نحوكَ والريحُ في قيدها ساكنةْ
وقلتُ: ابتعدْ
والتقينا
أنا الطفلُ
والزَّهرُ لم يبلغِ الثامنةْ !
فأوشكتُ أن أنحني لتمرَّ
وكانَ الرصاصُ يُفتتُ صدرَ الهواء ويلقيه للصخرِ
حين رأيتُ انفجاراً
صغاراً يطيرونَ صوبَ النجومِ
القنابلَ موقوتةً ترِثُ الأمكِنةْ
وقلتُ: ابتعدْ
لستُ وحدي.. ابتعدْ!
وأشهرتُ في وجهكَ السَّوسنةْ
***
تسللتَ من أينَ؟!
أينَ ولِدْتَ؟!
وكيفَ تكاثرتَ؟
كيف استطعتْ
أن تغافلَ أجدادَنا؟
أن تَغُذَّ الخُطى نحونا؟
أن تُسابِقَنا؟
كيف غافلتَ آدمَ ؟
كيفَ تسلّلتَ برداً إلى صدرِ حواءَ؟
هل شعلةُ الحبِّ بينهما انطفأتْ
فأقمتَ هنالكَ في نُطفَةٍ .. قُبلَةٍ
وذبحتَ البداياتِ من سرِّها ورفعتَ الظلامْ

وأصبحتَ يا موتُ ظلّيهما؟
قيلَ: لم يكُ للزَّهرِ ظلٌّ
ولم يكُ للسرِّ ظلٌّ
ولم يك للخيلِ ظلٌّ
ولم يك للنَّهدِ ظلٌّ
ولم يك للشمسِ ظلٌّ
فكيفَ قَطَعْتَ أناشيدَنا
كيفَ باغتّ (تموّزَ)
كيفَ تخفيتَ في ثوب أفعى
وغرّبتَ (جلجامشَ البابليّ) عن الغدِ والخطوةِ القادمةْ
وقَوّضتَ أسوارَ (أورَ) لتُصبحَ
يا موتُ من بعدها عاصمةْ ؟!!
***
تمرُّ مرورَ الجنودِ علينا
مرورَ القيودِ على روحنا
وتمرُّ مرورَ الحرابْ
وترفعُ أعراسَنا جثثاً وتُعلّقُها في مهبِّ الغيابْ
عصافيرَ جامدةً وسماءً مُعَلّقَةً في جناحِ غرابْ
تمرُّ علينا
وترتعشُ الجنرالاتُ تحتكَ
في ليلةٍ.. يَلِدونَ الخَرابْ
ويكونُ انقلابْ:
عساكرَ جرارةً.. عوسجاً
ومجالسَ من (نَعَمٍ) وذئابْ!
أنا الطفلُ ما زلتُ أُطبقُ كفّي
على جُملةٍ – زهرةٍ في الكتابْ
وأقرعُ أجراسَ لهوي كأني أُراوغهم عسكراً وذبابْ!
وآوي إلى (كَرْمِلي)

وأُحرِّضُ هذي الرّياحَ
وأُطلقُها من أَعِنّتها وأقولُ اقلعي جذرَ هذي الجراح
أنا الطفلُ يا أبتي.. فاستَعِذْ بي
أنا نصفُ سرٍّ
أنا فُسحةٌ ما وراءَ الجوابْ
دمي عاصفٌ وجموحي عُقابْ
أنا الطفلُ يا أبتي فاستعذْ بي
توكأْ عليّ، أنتصبْ، لا تَمتْ
ها همُ يُغلقونَ الصّدورَ علينا
هنا ظُلمةٌ.. ظلمةٌ.. ظلمةٌ..
... ...
وتحسَّستُ قلبي
وأشعلتُ قنديلَ روحي
تَجمّعتُ.. كي لا تمرَّ السِّهام
وتُشرعَ للموتِ نافذةً للظّلام
وتَجمّعتُ أكثرَ.. ثم صرختُ
فأبصرتُ (روما) مجلَّلَةً بالسّوادْ
و (صبرا) مُوزَّعَةً
أيّ طفلٍ قتيلٍ ستحتضنُ الآنَ؟
كلّهمُ ثمرٌ للفؤادْ
وأبصرتُ شاماً
وجيشَ المغول يُعَلّقُ (بغدادَ) من نهرِها في الوهادْ
– يا ولدي.. أين نحنُ؟
– هنا ..
– ما (هنا) هذهِ ؟
– (غيرُنا) يا أبي (غيرُنا)!!
قلتُ: يا امرأتي أين أنتِ؟
فقالت: هنا (غيرُهم)!

وتَجمَّعَ هذا الظلامُ تَجمَّعَ
فاحتلَّتِ اليافطاتِ الشّوارعَ أسماؤهمْ
***
أتدثَّرُ بالصمتِ أسئلةً
أتدثَّر بالأقحوانْ
وأطرقُ أبوابَ حزنِ النشيدْ
.. ..
وتمضي المدينةُ في ليلها نحوَ صدرِ الحديدْ
صوتُ قيثارةٍ وحفيفُ صلاةٍ
وأعمدةُ المدنِ الغابرةْ
آخرُ الضوءِ
بعضُ النّدى المطمئنِّ على جثةٍ جلستْ ساهرةْ
خطى تتقاطعُ
رتلُ جنودٍ.. وزنزانةٌ
وضلوعُ قرنفلةٍ سافرةْ !!
السماءُ معبأةٌ بالجفافِ
الحجارةُ غائمةٌ ماطرةْ
وكلُّ الخطى عابرةْ !!
وكلُّ الخطى عابرةْ !!

ردَّ لي بعضَ قلبي إذن أيها الحبُّ
كي أحبسَ الخطوَ فيَّ
فأمضي إليَّ
وردّ ليَ المرأةَ الطائرةْ!
رَفَعتُ لها نصفَ عمري جناحاً
لأُقنعَ زهرَ البنفسجِ فيها بأنّي ابنُها!
فردَّ على جسدي عُرْيَها
لكي أسترَ الرّوحَ

ردّ على غربتي (النّاصرةْ)
ولا تبتعد أيها الحبُّ عني.. وهاتِ يدكْ
إن برِّيتي خلفَ عرسِ الغَجرْ
مُعَلَّقةٌ في نشيجِ وتَرْ
فلا تبتعد أيها الحبُّ عني.. وهاتِ يدكْ
فالمساء حَلَكْ
وأضاعتْ شبابيكُنا منزلَكْ
أيها الحبُّ
لا تبتعد.. أيها الحبُّ عني
وهاتِ يدكْ
وأضئ شمعةً
سُحِقتْ وردةٌ
واطمأنَّ الرصاصُ.. فمرَّ بطيئاً!
وغنّى جنودٌ: قَتَلْنا مَلَكْ
أضئْ أيها الحبُّ وجهي ودُلَّ عليّ الفَلَكْ
ليلةٌ.. والنهارُ غريبٌ
فأيّ الدّروب سَلَكْ ؟
تعثرتُ.. قُمتُ
ويمّمتُ وجهي إلى حيثُ وجهي
فأبصرتُهُ.. قلتُ: من قَتَلَكْ ؟
قال: عاودني راقصاً في الظَّلامِ
هنالك في ساحةِ المقبرةْ
قُلتُ: ماذا حدثْ ؟!
قالَ: عند الغروبْ
افتتحوا مَعرِضَاً
وبعدَ دقائقَ مرّوا ثِقَالاً وفي دمنا افتتحوا مجزَرةْ !
قلتُ: يا أيها الموتُ
ناديتُ .. ناديتُ

أعرفُ أنكَ في الصّمتِ
والآنَ أملأُ كلَّ خلاياىَ رقصاً وأفئدةً وطبولْ
أقطعُ الدَّربَ.. أفتحُ هذا النهارَ عليكَ
سَأُشْهِرُ أجملَ ما في دمِ الوردِ
أجمل ما في عيونِ النساءِ
وأجملَ ما في غناء الطيور
وأجملَ ما في اندفاعِ الصدور
وأجملَ ما في جموحِ الخيول
وأنزِعُ منكَ المدى
ثم أتركُ صوتَكَ دونَ صدى
كصحراءَ خارجَ روحِ الندى
أيها الموتُ
هذا طنينُ خطاكَ
أَلا فاظهرِ الآنَ.. وليتجلَّ الوعيدْ !!
قالَ: ماذا تريدْ؟
قلتُ: أن تتراجعَ
أن تَذبُلَ الظلمةُ
الخوذةُ.. الحرسُ.. المشنَقَةْ
وأن أجدَ العمرَ للزّنبقةْ
قالَ: ماذا تريد ؟!
قلتُ: أن أوصِلَ الغدَ بالبارحةْ
وأجتاحَ جُنْدَ الرّدى الفاتحةْ
قالَ: ماذا تريد ؟
قلتُ أن تُرجِعَ الأرضُ أحبابَنا
ويُنادى علينا بأسمائنا
لا بأشلائنا ورياحِ الألمْ
قالَ: لا
قلتُ: بيني وبينكَ دمْ

ومضى .. ومضيتُ
فقلتُ: لنا جولةٌ
قالَ: كيفْ؟
قلتُ: أمتشقُ الرّوحَ رمحاً وسيفْ
وأكونُ الحُضورْ
قالَ: إنّي العدَمْ
فناديتُ
جاءت إليَّ نسورٌ
وجاءتْ إليَّ قممْ
قلتُ: مَنْ ذا يُلبي نداكَ؟
فقالَ: الأعاصيرُ والساحراتُ وبرْدُ الحديدْ
قلتُ: من ذا يلبي نداكَ؟
– العبيدْ.
وناديتُ
لبَّتْ ندائي الخيولُ
وجاء على الصَّهواتِ النّشيدْ
وجاءتْ حدائقُ
فانفضَّ
قلتُ: تمهلْ
مضى ..
عباءتُهُ طعناتٌ وبِيْدْ

***

قالَ: ألقاكَ في البحر !
قلتُ: ألقاكَ في البحر!

***

جاء كبشٌ من الموجِ مشتعلاً
قلتُ: يا بحرُ كنتَ دمي
وترابُ السّواحلِ كانَ الجسدْ

قلتُ: يا بحرُ فينا المدى يتَّحدْ
أنا الشيخُ.. والطفلُ
قلبيَ شيطنةٌ وولدْ
لكَ الأرضُ تاجٌ
لكَ الموجُ مَجدْ
قلتُ: يا بحرُ
آتيكَ
لا أُبحِرُ الآنَ حتى أكونَ سواكَ
سوانا هو الضّدُّ
.. أطفئ قرونَ المياهِ.. وَلِدْ
ساحلاً هادئاً يَصلُ اليومَ بالغدِ
يا بحرُ
يا بحرُ هاتِ يدكْ
لكي أرتقي فَرحاً زُرقتَكْ
ونُشعِلَ للفاتناتِ هناكَ على الشّطِّ وردْ
سترانا الطيورُ وتحملُنا للأغاني
ففي الحزن يا بحرُ منفىً وبُعدْ
هدأ البحرُ
يا بحرُ
ها سُفني.. عودتي نحوَ نصفي
ونصفيَ ماءٌ ونصفُ الحبيبةِ شَهْدْ
سقطَ الظلُّ
وانتشرَ الليلُ
فاندفعَ الموتُ
يا موتُ عُدْ
لنا البحرُ وجهٌ.. تَورَّدُ خَدْ
فقالَ: لي البحرُ.. سيفٌ وعَبدْ !
قلتُ: يا بحرُ نَسِّقْ رماحَكَ قد أقبلَ الموتُ

يا موتُ عُدْ !
هنا الكائناتُ أتتْ رضعتْ من حليبِ جموحي
ولمْ يكُ في الأرضِ قَبلَكَ حِقدْ
قلتُ: فلتكن الحربُ يا موتُ
فلتكن الحربُ
قالَ: أنا الجَزْرُ
قلتُ: أنا المَدْ
اندفعنا.. اختلطنا
وكانتْ أعاصيرُهُ سيفَهُ
وذئابُ الرياحِ أصابعَهُ
قُلتُ: يا حبُّ خُذْ بيدي الآنَ
حَصّنْ شراعي.. ويا حبُّ شُدْ
وتجمَّعَ فينا صباحٌ.. صغارٌ.. حدائقُ.. خيلُ مدىً لا يُحَدْ
وكانتْ كواكبُنا لا تُعَدْ
سقطتْ من يدِ الموتِ وجهتُهُ وأعاصيرُهُ
قالَ: إني العدوُّ وما من صداقتنا الآنَ بُدْ!
قالَ (عوليسُ): لا
هتفَ الموتُ: فلتتّسعْ خطوتي
وليكنْ حقلُكم رملَ (نَجدْ)
وليكنْ وجهُ (فينُوسَ) في الحدقاتِ رَمَدْ

ومضى فتصاعدتُ قلتُ لنا جولةٌ
ومضى
حينَ عُدنا مع الصُّبحِ نحوَ السّواحلِ قالتْ (دلال):
– انظروا تلكَ (حيفا)
انكساراتُهُ وصلتْ قَبْلَنا
وأشارتْ إلى كومةٍ من زَبَدْ !
***

ودارتْ بنا الأرضُ
جاءَ لنا الموتُ
قلنا لنا: أينَ حيفا ؟!
ولم يكُ هذا سؤالٌ
وأصبحتِ الأرضُ منفى
***
يَطولُ الرحيلُ إلى أرضِ (يثربَ)
مكةُ أبعدُ من خطوتي
والرياحُ تسوقُ المدى للرّدى
ويطولُ الرحيلُ إلى أرضِ يثرب
في العتمِ ألفُ (سُراقةَ) خلْفيَ
ناديتُ: عودوا
ومَنَّيتُهمْ
قلت: عودوا
تضيفونَ ليلاً إلى ليلكمْ
إذ يسيلُ دمي
ويُوزَّعُ جسمي على حُلْمِكُمْ
قلتُ: عودوا
وألفُ سُراقَةَ خلفي
ولم يبقَ لي رمقٌ غيرُ سيفي!!
وناديتُ: عودوا
ومنَّيْتُهمْ
لم يعدْ منهمُ أحدٌ
كانت الريحُ خلفي (سُراقةْ)
ورملُ الصّحاري سُراقَةْ
قلتُ: بيني وبينَ (المدينةِ) يومانِ
فلأتحاملْ على آخري!!
رُبَّ شبر من الأرضِ يَطلُعُ من خلفِ هذي الرّمالِ

ورُبَّ بدايةْ
تُعيدُ لي الخطوَ من تعبٍ.. وتردُّ النهايةْ
التفتُّ إلى صاحبي
قلتُ: لا تحزنِ الآنَ من بَعدِنا يُولدُ الحزنُ
ما دامتِ الشمسُ للقلبِ رايةْ!
وكانوا هنالكَ
تنبسطُ الأرضُ تحتَ حوافرِ أفراسِهمْ !!!
وتُخسَفُ من تحتنا!!!
فنُراوغُ نارَ أَسِنَّتِهمْ
قلتُ: يا ربُّ قُلْ
معنا أنتَ أَم معَهمْ؟!
ودَنَوا ودَنَوا
لَفَحَتْنا السيوفُ اللهاثُ
فقلتُ: أيا صاحبي قلْ لُهمْ.. قُلْ لَهمْ:
سنردُّ الأغاني على حزنهمْ
وتفسُّخِ أرواحِهمْ
قُلْ لهمْ ..
والتفتُّ
فما عادَ لي صاحبٌ
صاحبي الآنَ تابعُهُمْ !!
تعبي هَدَّني.. فَنَحَتُّ خطايَ
وناديتُ: يا للخيانةِ!
واقتربَ الموتُ
يا للخيانةِ
يا قلبُ لا تتوقّفْ
ويا صدرُ لملمْ فُتاتَ الهواءِ
الزنازينُ ضيقةٌ
والمذابحُ حاضرةٌ

والسماءْ
سَحَبتْ نُطْفَةَ الشمس من دربنا
فأشعلِ الآنَ يا قَلبُ ما شئتَ من عتمةٍ
ولتكنْ لي فضاءْ
حصارُكَ في خطوةٍ ودمٍ
وحصارُكَ صمتٌ وجرعةُ ماءْ
فلتكنْ لي فضاءْ
بيروتُ تحلمُ في فُسحةٍ تَصلُ البحرَ جهراً بأسمائنا
وتُعلّمُنا حكمةَ الكبرياءْ
إيهِ يا حبُّ (يثربُ) تنأى
إيه يا حبُّ (يثربُ) تأتي
سأُعاتِبُها دائماً أين كُنتِ؟!!
إيهِ يا حبُّ يثربُ تنأى
قَطَعْنا ثلاثينَ حزناً
لندخلَها مثلما ندخلُ القلبَ
لكنها الآنَ تنأى
شبابيكُها حَجَرٌ
والغناء على سورها حجرٌ
أين هُمْ ؟!!
من يَفُضُّونَ حزنَ القصائدِ إذ يُنشِدونَ هنا: (طَلَعَ البدرُ)
يا حبُّ قد طَلَعَ الموتُ
(عمَّانُ) تنأى
أيا حبُّ عُدْ
(مكةُ) الآنَ أقربُ
يا حبُّ عُدْ
لم يَعُدْ لي طريقٌ لأُطلقَ نافذتي طائراً أو رسائلَ
إني أعودُ وألفُ سُراقةَ خلْفي ..
هزيمةُ شمسِ النهارِ هنالكَ في صاحبي

فلنقفْ لحظةً
سأرتبُ يا حبُّ في لحظةٍ ساعدي وصفوفي
لكيْ أَتَجَمْهَرَ
ثم أباغِتُهمْ
ليسَ من خَلْفِهمْ
من حُضورِ الذئابِ بأسيافِهمْ
من خيامِ الجيوشِ بأرواحِهمْ
من مرورِ الخرابِ على صدرِهمْ
وانحناءاتِهمْ
(مكةُ) الآنَ أقربُ والنهرُ صوتي
وخلفَ (أريحا) جبالٌ، أنادي فآتي.. وتأتي
.. ..
وغافلني تَعَبٌ فغفوتُ
وقالَ لي الحُلْمُ: هلْ يتعبُ الحُلْمُ ؟
قلتُ: ذُبحْتُ
أطلَّ ليَ الموتُ
من أنتَ.. قُلتْ ؟!
فقالَ: أنا الآنَ أنتْ
وقبلَ دُنوِّ خُطاهُ انتصَبتْ
***
إنها شهوةُ الحربِ تَتَّقِدُ
أتكونُ المنافي.. ولي بَلَدُ ؟!
***
.. ..
وقاتلتُ فيكَ الحِجابَ ولغزَ البدايةِ
قاتلتُ فيكَ غموضَ الحكايةِ
قاتلتُ برْدَ الأصابعِ هدأتَهَا
وتَفَـتُّتَ تُفاحةِ الوقتِ

قاتلتُ صمتَ خطاكَ على عتباتي
وقاتلتُ ذاتي
لأرى جسدي عالياً وضلوعي قَصيَّةْ
وقاتلتُ نرجسةَ السَّرمديَّةْ
وناديتُ: قابيلُ.. أين أخوكْ؟
قالَ: لم أكُ حارسَهْ!!
وتصاعدَ صوتُ دمٍ في البراري
فناديتُ: قابيلُ لمْلمْ أخاكَ
ولملمْ نِصالَ الحجارةِ من دمِه وأسمهِ
كيفَ عَلَّقْتَنا في السّوادْ
وأدخلتَ ذاكَ الغرابَ إلى بيتِنا
ليشاركنا خبزَ أطفالنا..
حضنَ زوجاتِنا؟!
مِصرُ كانتْ لنا
مِصرُ كانتْ لنا
وغُرابُ السلامِ على بابنا
جاءنا ظُلمةً ترتدي هدأةً وتُعلِّمُنا
كيفَ نطوي الشوارعَ في القبرِ ليلاً !!
ونمضي صباحاً لأكفاننا !!

واقفٌ في المدى عتمةً.. واقفٌ
وجهُ هذا الغرابْ
لا يُعلِّمُنا أن نوارِيَ موتاً
يُعلِّمُنا أن نواري الحياةْ!
.. قابيلُ دع جثةَ الموتِ عاريةً كي نراهْ
ونُسدِّدَ أزهارَنا نحوَهُ لنردْ الطّغاةْ
فلا نطلب الآن مغفرةً
بعد (صبرا) انطفتْ هيبةٌ وإلهْ!

ولنْ نَركَعَ الآنَ إن الصلاةْ
تمرَّدَتِ اليومَ وابتكرتْ شرفةً للقتيلِ
وللصمتِ أُنشوطَةً في الفَلاةْ
وابتكرتْ جمرةً للمياهْ
فدع جُثةَ الموتِ عاريةً كي نراه
ونُقاتِلَهُ في القيودِ
نقاتِلهُ في انصياعِ الجنودِ
نقاتله في الإذاعاتِ
في الإنقلاباتِ
في هيئةِ الأممِ.. البرلماناتِ
فيما يقول لنا الجنرالُ
وما يتراجعُ عنهُ السؤالُ
وفيما تخبئُ جهراً يداهْ
فدعْ جثةَ الموتِ
دعْ جثةَ الموتِ عاريةً كي نراهْ

***

كانَ عمريَ حِمْلاً وكُنتُ خُطاهْ
وكانَ دمي غائماً في رؤاهْ
كانَ عمريَ حِمْلاً وكُنتُ خطاه

***

تَجرَّدتُ من سنواتي
عبرتُ الزمانَ
وقلتُ: ليَ الآنَ كلُّ حياتي
تجرّدتُ من سنواتي
ذراعيَ أبيضُ
صدريَ أبيضُ
روحيَ بيضاءُ
إسمي.. دمي

ظلّيَ الآنَ أبيضُ
صمتي.. وأنشودتي.. كلماتي
وقلتُ: ليَ الآنَ كلُّ حياتي!!
التّواريخُ أخمدتُها في دمائي
الدّقائقُ مطفأةٌ
يافعٌ أولُ العُشْبِ فيَّ ومُشرِقةٌ ظلماتي
حافلٌ مهرجانُ السواحلِ
طائرةٌ خطواتي
وشفّافةٌ كالرّؤى أغنياتي
سأُغلقُ أبوابكَ الآنَ
أَسحَبُ ما كنتُ أسْلَمْتُهُ ليديكَ وثيرانِكَ القاتلاتِ
وأُطلقُ ما شاءَ لي سيدي الحبُّ من طلقاتِ
لينهارَ فيكَ الظلامُ وتَبزُغَ أقمارُ ذاتي
الشوارعُ بيضاءُ تركضُ، والبحرُ أبيضُ
صافيةٌ صحَوتي.. وسُباتي
فلا شيءَ يحكُمني الآنَ فيكَ
تجرَّدتُ يا موتُ من سنواتي!!
... ...
ولم يكُ بيني وبينَ الذي قُلْتُهُ
غيرُ فوضى الحَمامِ التي أيقَظَتْ هدأةَ الشرفاتِ
رأيتكَ تَصعدُ حقلي فيذبُلُ
تَصعدُ زهرَ البنفسجِ يجفلُ
تَصعدُ أحجارَ بيتي.. تفارقني عتباتي
قلتُ: لا تئد الوقتَ فيّ.. أنا خارجَ الوقتِ
خارجَ ظلّ الجنودِ
وخارجَ رمحِ الطّغاةِ
تَقدَّمَ.. لا ليسَ نحوي ونحوي
فشاهدتُ أولى الدّقائقِ تَسْوَدُّ

واجتاحَ عُرْسَ كُرومي
وعمَّ خريفٌ طويلٌ غُصوني
تواردَ رَعدٌ.. وعمَّ الجهاتِ
قالَ: ما جئتكَ الآنَ كيْ أقبضَ الروحَ
أو أملأَ الكأسَ من دمكَ الزَّهرِ
حتى تفيضَ سَواداً على كتفيَّ صفاتي!
فلتكنْ روحَ هذا البياضِ إذنْ
فلتكنْ روح هذا البياضْ
ولكنني أشربُ اليومَ ما أخضرَّ حولكَ
مِن مطرٍ وأغانٍ
وأسحبُ زيتونةَ الرّوحِ من شَعرِها للجفافِ
وأُطفئ عشبَ الضِّفافِ
هنا، وهنالكَ
عشبَ الضفافِ.
قلتُ: حقليَ هذا
فقالَ: فَلاتي !!
وشاهدتُ قربيَ بعضَ رُفاتي!
نهضتُ وناديتُ:
فليكنِ السهلُ قمحاً
وهذي التلالُ شَجرْ
ولتكن الريحُ سفحاً
لأقطفَ هذا الثّمرْ
وليكن البحرُ عُرساً
ولونُ الفَراشِ وتَرْ
وليكن الحلْمُ بيتاً
وبعضُ المُقامِ سَفرْ
سفرْ ...
فاخضرتِ الأرضُ ثانيةً

وشاهدتُ (بدْراً) يُغادرُ أكفانَهُ وهو يُنشِدُ ملءَ الفضاءِ:

... مَطرْ

مَطرْ

مَطرْ

****

نُلاقيكَ فلتتقدَّمْ إذنْ

وننـاديكَ: ها نحنُ دوماً هنا

فمن أيّ زاويةٍ سوفَ تَخرُجُ ريحاً علينا

وتَقلعُنا؟

أَتغافِلُنا ؟

وكلُّ الجهاتِ منازلُنا

ولو شاءَ جلجامشُ البابليُّ

لردَّكَ عن روحِه وحدَها

ولكنّه عادَ بالعُشْبِ عادَ لنا كلّنا

غَافَلَتْهُ الرّؤى لحظةً إذ رأى الموتَ يَهزمُ (أورَ) بأكملِنا

ولكنّ طيبةَ آبائنا

فيهِ ما أبصرتْ غيرَ زُغبِ الحواصلِ

ما أبصرتْ غيرَ أكفانِنا

هذا صدى (أورَ) في روحنا

(ويَعْبَدُ) تخضرُّ داخلنا

(وعكا) تردُّ الغزاةَ هناكَ

بسيفٍ من الموجِ أو ضِلْعنا

(وبيروتُ) تَخفِقُ في صدرنا

ولو خُيِّرَتْ شهوةُ الليلِ فيكَ

لوَزَّعْتَنا في رؤوسِ الجبالِ

هنا وهنالكَ

أشلاءَ أشلاءَ

لا شيءَ فيها يُشابِهُنا

كأنكَ إذ تَقطِفُ العمرَ تَخشى مقابِرنَا !!
فتبتكرُ الغُربَةَ.. الهجرةَ.. الفلواتِ
المنافي.. القيودَ
حرابَ الجنودِ
انشطارَ القذيفةِ
(نيرونَ).. (شارونَ)
كذْبَ الصّحيفةِ.. حُكّامَنا
ولكننا نُنشِدُ الآنَ: نحنُ هنا كلُّنا
تجيءُ إلينا وتحملُنا جثثاً
واحداً
واحداً
واحداً
واحداً
ونَحملُ منكَ إلى قَبرنا ما اقتطعتَ من القلبِ
نحملُ منكَ الكثيرَ
لأنّا هُنا (النَّحنُ)
لكنكَ (الأَنتَ)
وحدكَ تمضي
تُوزِّعُ جسمَكَ فينا
وتَدفِنُ غربانَ عمركَ فينا
نموتُ.. وما زالتَ تنتَحِرُ
ونحيا.. وما زالتَ تنتَحِرُ
ونملأُ هذي البراري غناءً.. صغاراً
ويملؤنا المطرُ
بلاداً وقمحاً.. مواسمَ عشقٍ طويلٍ
ويتبَعُنا القمرُ
إلى ساحةِ الرَّقصِ حيثُ الظّباءُ هنالكَ تعلو
وتنحدرُ

وما زالتَ تمضي وحيداً بعيداً إلى جثةٍ
وفيما تَبقّى لها من دقائقَ تنتحرُ
ويخرجُ طفل إلى ساحةِ الحُبِّ
من صفحاتِ كتابِ القراءةِ
أو في النّشيدِ ويَصرُخُ في الأرضِ: أين طغاتكَ؟!!
يأتي الصدى: ها هنا انكسروا
ونُبصرُ ليمونةَ الخوفِ فيكَ
تذوبُ.. وتصفَرُّ.. تنفَجِرُ
وتَنحَلُّ تنحَلُّ
تتدَثّرُ
كلما أنشدتْ طفلةٌ في الطريقِ إلى المدرسَةْ:
ضوءُ قلبي (دلالُ) و (ليْنا)
وصوتُ دمي (عُمَرُ)
ونَبقَى ..
ونصعدُ أحزانَنَا وأناشيدَنا
وتُغافِلُنا ثمّ تنسلُّ سِرّاً وجَهراً إلينا وتَنتَحِرُ
نَموتُ..
وما زلتَ تَنتَحِرُ
ونحيا وما زلتَ تَنتحرُ
أيار . حزيران 1986

ـ فضيحة الثعلب

U.S.A

ها هي صورتُكِ المنقوشَةُ على بقايا الأرض
وملامحُكِ النافرةُ فيما تَبقّى من فضاء
لا تُشبهينَ الشمسَ المعلّقةَ خلفَكِ في الصّور
ولا النوافذَ المضيئةَ عبر الجدران
ضبابٌ يلفُّ المدى وصوتَ المغنّين
ويبددُ قيثاراتِهم المبحوحةَ من فرطِ الحلم
وصلابةٌ تكسرُ خفقةَ الطائرِ
في بحثِهِ عن اسمهِ ولونِ ريشهِ وشكلِ غنائه
قريبةٌ كمشنقة
وبعيدةٌ كقطرةِ ماءٍ يتطلَّعُ إليها الرّمل
لا أحدَ يتكئ فيكِ على أحدْ
والطوابقُ سباقُ القتلةِ للابتعاد عن
الأرض المشبعةِ بالصّرخاتِ والدَّم
الباحثُ عنكِ لن يجدَ روحهُ
والحاملُ إليكِ وردَهُ لن يجدَ سوى شاهدةِ القبر
ظلالُكِ يابسةٌ على الكتفِ العاري
وشوارعُكِ لا توصلُ أحدا
اللوحاتُ الملوّنةُ – المشظّاةُ في شارع (سوهو):
آخرُ ما تبقَّى لكِ من حدائق
وكفّارةُ الإسمنتِ عما ارتُكِبَ ضدَّ العشب
تُعلِّقينها قربَ الأرصفة
كي ننشغلَ بفتنتِها
وننسى خنجَركِ المصوَّبَ إلى ظهرنا من أعلى البنايات
المقاهي الصغيرةُ وضحكةُ السيدةُ السمراء:
محاولتكِ الأخيرةُ أن تقولي: إنكِ بلا ذنوب
وإطلالتكِ الحديديةُ على النهر

ستارُكِ الذي يُخفي ما تركتِ من دموعٍ في الغابات
تُضلّلينَ المساءَ بهدوئكِ ولا تضلّلينَ القلبْ
وهو يتلقّى الجرحَ في صناديقِ البريدِ وعناوينِ أطفالِ المذابحْ
سكاكينُكِ جاهزةٌ لقَتْلِ مَنْ يَرى
وذراعُكِ مسنونٌ لتقطيعِ الرّؤيا
وها أنتِ تنتصبينَ ملءَ صعودِكِ واثقةً مثلَ شاهدِ زورٍ
مطمئن لتواطؤ القضاةِ معه.

***

أنا من صدّقَ الثعلبَ حين قال:
أحبُّ المدينة
أنا من صدّقَ الثعلبَ حين قال:
أحبُّ نيويورك
تلكَ آثارُ خطواتهِ بين العرباتْ
والتماعُ أنيابهِ في نوافذِ النّاطحةْ
وحدَهُ واضحٌ
والشمسُ محتجبةٌ خلفَ دمٍ لم يجف
فوق أرصفةٍ يفاجئوها المارّةُ بشرودِهم الدّائم
وجريانهم المحموم
وحدَهُ السائرُ على مياهِ نهر (هدسون) بلا أسطورة
والزّارعُ شهوتَهُ عند الضفافِ الرّاكدة
وحدَهُ يتقدّم
وحدَه يكسرُ ضجةَ الصرخةِ المحبوسةِ في شوارعِ
(بروكلين)
ويطاولُ (منهاتن)
وحدهُ السيِّدُ في (هارلم)
وحدَهُ..

***

أنا من صدَّق الثعلبَ حينَ قال: وصلت الفريسة

وأشارَ إلى الغروبِ أن يكون أكثرَ صمتاً كي لا تَجفِلْ
سأنادي صديقيَ الذي احترفَ الإسمنت
واعتزلَ القيثارةَ.. أن يُقْبِلْ
سأنادي جسدَهُ المطحونَ في مطعمٍ هَرِمٍ عند المنعطف
أن اوقِفْ هذا الدّورانَ بحثاً عن الرّغيفِ المُرّ
وأقولُ له: أينَ نسيتَ النشيد؟
سأنادي أخي الزّنجي الذي لم يزل مطارداً بين الناطحات
كما كانَ مطارداً في الغابة
وأَبوحُ له بسرِّي كلِّه
وبجرحي كلِّه
بدمي الذي يَتَطَلّعُ إليهِ ذلكَ الشَّقّ النّهمُ لبوابةِ المسلخ

وسأناديكِ أنتِ
لا لأنني أعرفكِ
بل لأنني أبحثُ عنكِ
لا لأنني أعرفُ تضاريسَ ملامحِك
وجغرافيا جسدكِ
والتماعةَ عينيكِ في الحبّ أو الفزعْ
بل لأنني أبحثُ عنكِ

***

U.S.A

كان ثمّ فضاءٌ هنا.. وغابَة
قبلَ أن تقولي للنجوم المضيئةِ في أعلى السماء:
كوني أضوائيَ الشّاحبةَ أو السَّاطعةَ في ظلمة المكان
هذه العربةُ لن تكونَ الجندب
هذه المروحيةُ لنَ تكونَ الفراشة
هذا السجنُ لن يكونَ الدّغل
هذه الاسطوانةُ لن تكونَ الصهيل

وهذه القضبانُ لن تكونَ قرونَ الأَيلِ الشّاردِ في أعلى التل
براءةُ الزنجي لن تكونَ ليلَكِ
وحكمةُ الهنديّ الأحمرِ لن تكونَ خطاكِ
لا يمرُ في سمائكِ العصفور إلّا ليبكي سلالتَهُ
لا يمرُّ بكِ الهواءُ إلّا ليلُمّ براءةَ نشيدٍ محروق
لا يمرُّ بكِ التاجرُ إلّا ليُحصي آخر ما تبقّى من ضحكاتٍ
وأذرعَ خارجَ محفظتهِ
لا يمرُّ بكِ الجندي إلّا ليتزوَّد بالرّصاص
ولا يمرُّ بكِ القاتلُ إلا ليُقيم!

***

لم تَحْمِني الوردةُ
وإن كانت صديقتي
لم يحمني النّايُ
وإن كانَ صدري
لم تحمني الأغنيةُ
وإن كانت رئتي
ولم يحمني البحرُ
وإن كانَ رمحي وحائطي الأخير
مُتقدِّماً هكذا في المدينة
خطايَ حروفي التي أتكلَّمُ بها
ورنةُ ضحكتي الغابرة: قنديليَ الوحيد
مدججاً بكلّ ما فقدتُه وسأفقده
من ساحل طيب إلى شهيد لم يَعْتَدْ قبرَهُ والمنفى الذي سيُبعثُ فيه
مدججاً بخسارتي
مدججاً باحتمالات مفتوحةٍ دائماً على الدّم
وبلادٍ تحاولُ ألاّ تَعتادَ المذابحَ وزيارةَ القبور
.....
وأبحثُ عنكِ

أنتِ وحدكِ
لكي أتلمّسَ فيكِ جهتي
وأجرَّكِ نحوَ روحي بقصيدةٍ أو جرح
.....
إنها نيويورك
أكبرُ من لاعبٍ وأبسطُ من لُعبةٍ تُشبهُها الرّصاصة
غامضةٌ كمسدس قربَ النهرْ
وأكثرُ هشاشةً من حديثٍ مُلتَهِبٍ
بين قاطعِ طريقٍ وعُنقٍ تحتَ السّكين
لم أعرف اسمها في الكتب
مثلما عرفتُهُ في عيون النائمين على الأرصفة
ولم أعرف اندفاعها في الصُّور
مثلما عرفتُهُ في صرخةٍ مكتومةٍ قادمةٍ من شارعٍ مُظلِم
لا أزقةَ في (منهاتن)
لأن القاتلَ أكبرُ من جسده ولا بُدّ أن يمرّ
لا مقاعدَ لهذا الرّصيف
كي تستريحَ الضحيةُ قبلَ أن تُواصلَ موتَها
(وهدسون)[5] يمرُّ كمنْ يذكرُ كلّ شيءٍ ولا يريدُ أن يتكلَّم
كمن يعرفُ التفاصيلَ كلَّها ولا يستطيع إعادةَ تمثيلِ المجزرة
– هذا عذابٌ أكبرُ مِنْ نهر–!!
ها هو يسقطُ مُتعباً في المحيط ناسياً روافدَهُ ومنابعَهُ
والأمطارَ الحامضةَ التي تجلدُ لحظةَ صمتهِ الأخيرة
نهرٌ يسيرُ إلى حتفهِ
هاذياً مثلَ حصانٍ يائس أو امرأةٍ مُغتصبة!
***
انتظري إذن أيتها السيدة
ثمةَ أكثرُ من مُتعب في هذه المدينة
وترقّقي.. ثمة أكثرُ من غريب

وأكثرُ من خطوةٍ تبحثُ عن شكلها وتراوغُ المصيدة
ثمةَ أكثرُ من جناحٍ مهروسٍ يتأملُ الأفقَ
ويلعنُ الطوابقَ العليا لناطحاتِ السحاب
ثمة أكثرُ من حزنٍ يُغالبُ مهرجانَ الضحكِ الشّمعي
في ملاهي الليل والمصنعِ النّووي
وثمةَ أكثرُ من هنديّ أحمر
.....
وأنتِ التي أبحثُ عنكِ
أسمعُ صوتكِ في الجانبِ الآخرِ لهذه الجثة
لم أسمعْكِ تتحدَّثين
ولكنني أعرفُ الآنَ:
أن هذا الصوتَ صوتُكِ
حين تصرُخين:
كلّ هذه الارتفاعات
للابتعادِ عن الوردة؟!
كلُّ هذه الشوارعِ الخاليةِ بعدَ السابعة
كي يَقنعَ القتيلُ ألاّ مكان له أو أنيس؟!
كل هذا الليل فوقَ الأرصفة
كي تُنارَ أبراجُ الناطحات؟!

نيويورك..
لم تكن الغيمةُ بحاجةٍ لكِ حتى يكونَ البرقْ
(ولنكولن) لم يكنْ بحاجةٍ لمكبرِ الصّوت
كي يُسمعَ الحريّةَ صوتَهُ
(ومارتن لوثركنغ) لم يكن بحاجةٍ لقنديل
كي يتعرّفَ على وجهِ قاتلِهِ
طعنةٌ تتقدّمُ في انهدامِ الرّوح
والبشرُ كالنّملِ في الطريقِ السريع المُشْرَعِ كالقدر

تجترهم المكاتبُ وتَعِدُهم بنهايةِ الأسبوع
حيثُ يصلونها بلا أعمارهم
طعنةٌ تتقدَّم
وأنتِ تصرخينْ:
أنا من صدّقَ الثعلبَ حين قال:
أحبُّ المدينة
أنا من صدّقَ الثعلبَ حين قال:
أحب (شيكاغو)
***
عرباتٌ تملأُ المكان وتتزاحمُ في الحَلْق
أيها الرجل
ثمة صباحٌ هنا في الضواحي
ثمة شمسٌ.. أترى؟!
أيتها المرأةُ
ثمة عشبٌ هنا هل تلاحظين؟!
أيها الشّرطي
كيف تسمحونَ للعُمي بقيادةِ العربات؟!
–اسأل التّاجر!
– أيها التاجر
– اسأل مكتبَ الدعاية!
– يا مكتبَ الدعاية
– اسأل إدارةَ التلفزيون!
– يا إدارةَ التلفزيون
– اسأل صاحبَ المصنع!
– يا صاحبَ المصنع
– اسأل المصرفيّ!
– أيها المصرفي
– اسأل الوزير!

– أيها الوزير
– اسأل الشرطي!
– أيها الشرطي
– اسأل التاجر!
– أيها التاجر....
... ...
من أيّ اتجاهٍ تدخل ستجدُ الظلمة
تموّزُ سيغضُّ الشمسَ عنكَ
ويطعنُ رئتيكَ بهوائهِ المتفسِّخ

ملايينُ النوافذِ والكلُّ يموتُ اختناقا
ملايينُ الخطى
ولا مِنْ إيقاعٍ يُرشدُ الروحَ إلى يومها التالي
ملايينُ الشفاه بلا أغنية
ملايين الساعاتِ المحشورةِ في الأدراج
ولا مِن التفاتةٍ صوبَ النهر
مُتْ أيها الماءُ إذن عطشاً للبشر
مُت أيها الجبلُ النائي
غيظاً من دهشةِ الأطفالِ بارتفاعِ البنايةِ
أكثر من دهشتهم بفتنةِ القمّة
مُتْ أيها الفنانُ الجالسُ على الرّصيف
محاولاً إعادةَ صياغةِ ملامحِ الناس ليكونوا أكثرَ فَرَحاً بأنفسهم
مُت.. ولا ترسمْهُم على هواهم
مُت أيها الزّنجي قبلَ إضحاكهم
وأنتَ تُقلّدُ الآلةَ مُعتلياً هذه الصَّفيحة
مت أيها الوردُ اليتيمُ بسيقانكَ القصيرة
أيها المحاصرُ بينَ رصيفين كشاهدٍ على حضارةٍ انقرضتْ

***

U.S.A

لم أكنْ بحاجةٍ إليك لذا أتيتْ
ولم آتِ إليكِ لأنني خارجَ لهاتِك
أدورُ حولكِ كفريسةٍ يَقِظَة
تعلمُ جيداً أن تمثالَ الحريّةِ لن يَصلَ الشاطئ
ولن يكون باستطاعتهِ عبورَ شارعِ (وول ستريت) مطمئناً

مَن يُزيّنُ وجهَكِ أيتها المدينة
كي تقطعي الطريقَ على الحلم؟!
– أنتَ...
أيها البرلماني
ما ثمنُ الحرية؟!
أيها الممثل
ما صعوبةُ دوْرِ الرئيس؟
أيها المهرجُ قَلّدِ المدينةَ
أيها الثعلبُ مُتْ في حبِّها
أيها الشّرطيّ تنازلْ عنها لرجلِ العصابة
أيها الطفلُ لا تزعجْها ببراءتك
.....
مَن يسكنُ الغرفةَ المجاورة؟
من يعرفُ الطريقَ إلى الحقل؟؟
من يستطيعُ انتزاعَ وجهه مِن المرآة
وملامحَهُ من جليدِ المكان؟
مَن يجرؤُ على تجاوزِ عطلةِ الأسبوع؟
من يدعو النهرَ للرقصةِ التالية؟
ومن يَقْتَلِعُ حُمّى المستنّنات
من هذا التعبِ الآدميّ؟
.....

لا تتبعي خُطى الريح
ثمةَ هاوية
لا تتبعي خطى النهر
ثمة ملح
لا تتبعي خطى الشّرطي
ثمة قَتْل
لا تتبعي خطى المغنّي
ثمةَ آلة
لا تتبعي خطى الموظف
ثمة وحدة
ولا تتبعي خطى الجندي
ثمةَ وجهُكِ وجِهاتُكِ
حروبهُ مخبأةٌ لكِ
لطحنِ يومكِ الأبيض
ورصاصاته جاهزةٌ ليلوكَ حلمَكِ
يمرُّ علينا كالبراءةِ هنا ف
َرِحاً بوجهِ حبيبتهِ وفخوراً بأطفاله القادمين
لا يتوقف ليتأملَ ملامحَنا
يجتازنا.. ليقتلنا هناك
كأن أرصفةَ (ديترويت) لم تَعُدْ قادرةً
على استيعابِ مزيدٍ من الدَّم

أيها الجندي
أيها العمر الأخضر المرهونُ للجنرالات
من علّمَكَ أن كعبَ البندقيةِ
أرقُّ من خصرِ حبيبتك؟!
من علّمكَ أن القنبلةَ أجملُ من الوردة؟!
والرصاصةَ أكثرُ زهواً من البرعم؟!

الرّحلةُ طويلةٌ أيها الجندي
يقولونَ لك
ولكنَّ عددَ القتلى الذي يُمكنُ أن تحظى به هناك
يستحقُّ المغامرة!
يقولونَ لك: تَقدَّمْ
كما لو انكَ انتصرتَ في فيتنام
فأمامكَ إبلٌ لا تعرفُ الثّورة!!
وبدوٌ لا يحبّونَ الحريّة!!
أيها الجنديّ تقدَّم..
***
وحدكِ تعرفينَ السِّرَّ
وحدكِ تُدركينَ المدى الذي ستبلغهُ الرّصاصة
***
لم أنمْ جيداً هذه الليلة
سياراتُ الشرطة عصافيرُ (سان دياغو) الوحيدةْ
لم تصمتْ طوالَ النهار
لم تصمتْ طوالَ الليل
في الفجرِ كانت تمرُّ تحتَ شباكي
لم تكن الشمسُ قد أشرقتْ
لم أكن قد صحوتُ
لم أكن قد نِمتُ
وتساءلتُ: من ذلك الذي يملك القدرةَ على القَتْلِ في الصّباح؟!
من يَملكُ القدرةَ لكي يَقْتُلَ على الرِّيق؟!
وتحسّستُ عنُقي
... ...
زمني أنتِ وهرولةُ عقارب ساعتي باتجاهكِ
.....
أيها النّائم

استيقظْ

واحجزْ مكانَكَ في صَفِّ القتلى

ولتكنْ فكرتُكَ عن الحياةِ أكثرَ ليونةً

كي لا تُرهِقَ الرصاصةَ وهي تعبرُ جمجمتَك

–تلك وصية القاتل–

أيها الهنديُّ الأحمر

أحبكَ

لكنني لن أكونكَ

ولن تكونني

– تلك وصيتي–

تشبهني في كلّ شيء

يا ابنَ النّسر

يا ابن الأيلْ

أيها الحصانُ المجنون

تشبهني ولن أكونَك

يا ابنَ القمةِ العاليةِ المكسوَّة بالبياض

يا ابنَ الوادي العميقِ المحشوِّ بالصَّرخات

تشبهني ولن أكونَك

يا أخي

لن أتراجعَ معكَ نحو المذبحة

ولن أتقدَّمَ معكَ إلا لنُشعِلَ روحَنا بغنائِنا البِكْر

وحلولِ الخيلِ فينا

وحَدنا نعرفُ السِّر لأننا القَتلى

وحدنا نعرفُ السِّر لأننا الأحياء

***

U.S.A

أسمعُ خطاكِ خلفي

أنا من يسيرُ فيكِ

أسمعُ تَهشُّمَ روحِكِ
أنا من يرمِّمُ جسَدَهُ على أسوارِ مجازِرِك
وأرى يَباسَكِ ماثلاً في السَّحابة
استدرجُ غيومي لأَزرعَ الأحاديثَ ألفةً
وقصائدي لأعيدَ صياغةَ قلبِ الغريب
يتشققُ اسمُكِ تحتَ لساني
ومشهدكِ في قصيدتي
لم يكن (فان كوخ)[6] وحيداً مع أزهارِ سوسَنِهِ
كي تحمليهِ إلى هنا وتُزيّني به متاحفَكِ الصّامتَةَ
–لن يُزهر الإسمنت–
وحيدٌ كقمرٍ مذعورٍ يرى صورتَهُ في دمِ طفل
متناثرٌ في ألوانهِ على الجدران الصّلبة وحولَه البوليس
لم يكن بحاجةٍ للهراوةِ وهو يرسم
ولم يكن بحاجةٍ للاسلكي كي يُكلّمَ الغَد
وحدَهُ جالسٌ.. وأنا معه!
لن تكوني حيّةً به أيتها الميتة
لن تستطيعي الضّحِكَ أيتها المتذلّلةُ للرّخام
ولن تكوني طيبةً أيتها الطاحنة
وحدَهُ هنا.. وأنا معه
وحوله نساءُ (غوغان) المجللاتُ بأحزانهن الأزليّة
لن يتقدمَ (غوغان) ليرفعَ صُفرةَ الموتِ عن وجهك
فهوَ يعرفُ ما تحتَهُ
ولن يَقْبَلَ (مونيه) أن تظلّ أزهارهُ
منثورةً حَولَ جسدكِ المتيبِّسِ كالقضبان
لن يُعيدَ (بول كلي) بطفولةِ روحه
وبشمسهِ المُعَلّقَةِ في سقف لوحتهِ البراءةَ إليكِ
ولنَ يستطيع (بيكاسو) زراعةَ الحلمِ في مكعباتكِ
وأنتِ تحشرينَهُ في الزوايا

أسْرَاكِ الجميلونَ في المتاحف لن يكونوا وجهَكِ
أسْراكِ الجمليونَ لن يكونوا خدعتَكِ
وحيدونَ هنا.. وأنا معهم
يَتَجمّعونَ كلّ ليلةٍ بعد أن تُوصَدَ الأبواب
يغافلونَ عيونِ آلاتِ التّصوير الباردة
يُنشِدونَ حريتَهم
ويلعنونَ ضوءَكِ الأعمى
مدركين.. أن واحداً منهم
سيكونُ صبيحةَ الغدِ عُرضَةً للصَّفقةْ
واحداً منهم عرضةً للمزاد
مدركين:
أنهم ضحاياكِ الذين تتزينينَ بهم
في الطريقِ إلى البنوك

***

U.S.A

لا تتزيني بعد اليوم
بما حلمنا أو نَحلمُ برؤيته
حتى تعصفَ الدهشةُ بنا
توقّفي
أيتها الدهشةُ البلهاء
حيثُ كلُّ شيء يتحركُ أمامَ العين لا في القلب.

***

– كيف نخونُ المدينةَ هذه الليلةَ يا (جورج)[7]؟
– نسافرُ في آخرِ ما تبقّى من طِيبةٍ تُخفيها
– كيف نَدكُّ قلَبها؟
– بأمنيةٍ بسيطةٍ...
كأن يكونَ للّوحةِ من يحبُّها
وللعازفِ على الرصيفِ من يسمعه

– كيف نجدُ المرأةَ – المرأةَ يا جورج؟
– نَتَتَبّعُ خطاها داخلَنا
– وكيف نعرفُ أننا وجدناها؟!
– حين نكونُ أسرى وردِها
.....
يا امرأة
يا ذهبَ المدينةِ اليتيم
يا ذهبَ الأغنيةِ الفقيرة
فيكِ الكثيرُ من البحر
اسمعُ موجَكِ يدعوني.. ولا أراه
فيكِ الكثيرُ من السهول
يلفّني زهرُكِ البريّ بشغبهِ.. ولا أراه
فيكِ الكثيرُ من القممِ العالية
وأسيرُ دونَكِ محنيَّ القلب
تلعبُ في داخلي ريحُكِ
ولا أرى سوى ارتفاعِ الناطحات
على الجانبِ الآخرِ من خطايَ التائهةِ تقفين
على الجانبِ الآخرِ من خطاكِ التائهةِ أسأل:
هل هوَ أسمُكِ هذا المضيء
أم شعلتُكِ المتطلّعةُ لي؟
هل هو اسمُكِ هذا الأخضر
أم ذراعايَ الطائران إليكِ؟
لا تقفي كثيراً خارجَ حلمكِ بي
لئلا تجفّي في عراءِ هذا الحديد
ولا تسحبي يدكِ من يدي
لئلا يَقتُلَني الظمأ
كم بحثتِ عن حصانِك
فلم تجدي حولكِ غيرَ تلالِ الدّهن

وكم بحثتِ عن أسطورةٍ تهزُّ خلاياكِ
فلم تجدي سوى قطارٍ آدميٍّ يَمرُّ على أضلاعكِ بلا رحمة
حين نلتقي...
لن تكوني بحاجةٍ للسمفونيةِ التاسعة
كي تنامي معها خلسةً أو علانيةً
ولن تكوني بحاجةٍ إلى (فاغنر)
كي ترتعشَ حروفُ اسمكِ وتضيء
سأملؤكِ محبةً لتنسيْ مَن عَذّبكِ
وأملؤكِ عَطَشا بي لئلا تعودي إلى الوراء
ولكن...
أين تختبئين ذُعراً؟
أين تختبئين؟
سلاماً للفجرِ المكسورِ في عينيكِ
وليدكِ المرتعشةِ وهي تشدُّ على فنجانِ القهوةِ في
مطعمٍ مُهمَل

– كيفَ نَردُّ الكابوسَ المتقدِّمَ نحونا يا جورج؟
– نَتَقدّمُ في حديثنا
ونطمئنُ الرصيفَ أنه ليس وحيداً
....
ليلٌ صَلْدٌ
الشوارعُ مستباحَةٌ
وضوءُ القمرِ يتفتتُ فوقَ السطوح
أيها المُتْعَب
لا مكانَ لكَ سوى هذه الشرنقةِ المنسوجةِ
من فضلاتِ نيويورك
أيتها الفقيرةُ
لا فساتينَ لكِ سوى هذا العُريِ

الذي تلقيهِ على جسدكِ (أوهايو)
أيها الهندي
لا أرضَ لكَ غيرَ هذا الموتِ
الذي تُعِدّهُ لكَ (مونتانا)
أيها الشاعرُ
لا شِعرَ لكَ غيرَ هذا اللغوِ
الذي تحشُركَ فيه (داكوتا)
أيها الزّنجي
لا لونَ لكَ غيرَ هذا القهر
الذي تَرميكَ به (فرجينيا)

– كيفَ نخونُ المدينةَ يا جورج؟
– ندخلُ الأقبية.. ونَسيرُ واثقينَ إلى سماعِ الجاز
وكأنّها ليستْ هنا!!

***

الصوتُ شاحب كنادلةٍ مرهَقَة
يتسربُ من شقوقِ الليل
مثل معجزةٍ لا يلزمُها نهار
والليلُ قطعةٌ قاسيةٌ من جِلْدٍ تحتَ أسنانِ طفلٍ جائع
من يبحثُ عن رحمِ الأرض؟
غير يتيمِ القلبِ الذي تُطَوِّحُ بهِ أنهارٌ
من عَطَشٍ لا تُرى

الدّرجاتُ المتعبةُ تُفضي إلى الموسيقى
والنّاطحاتُ تُفضي إلى الدَّويْ
لم تُستَشَرِ الروحُ في لونِ المعدن
ولا الأقدامُ في ارتحالها إلى ما ستخطّهُ في هذا الرّكام
الدّرجاتُ تُفضي إلى الموسيقى
–قلبي لا يُفضي لسواكِ –

والمقاعدُ آخرُ ما تبقّى مِن أذرع تعانقُ الغَريب
وجوهٌ أليفةٌ تملأُ المكان
مثل أطرافِ الأرضِ التي لم تَكن يوماً سياجاً أو جداراً
قبلَ صعودكِ إلى عرشِ القنبلةِ النوويةِ يا (نيفادا)
للمرأةِ أن تتأمّلَ الصّورةَ التي تَحملُها
تُشبهُها..
ولا تُشبهُ روحَها
ولي أن أتأملَ ما يُشبهني
ويَفتحُ لي الطريقَ لأشُدّ على أغنيةِ روحي
مثلَ صديقٍ ألقاهُ بَعدَ الحرب
للمرأةِ أن تنتظرَ صديقَها الذي يجيءُ الآنَ
وتَتَطلّعَ من فوقِ كتفيهِ لذلكَ الذي لن يأتي

لشحوبِ القاعةِ وضوحُهُ
وللكأسِ الثالثةِ شمسُها حينَ تكتشفُ المكان!
ثلاثونَ وجهاً
وقلبٌ واحد
ثلاثونَ وجهاً
تَستندُ إلى جذوع بعضها ضدَّ هذا الانهيار
– من أينَ يأتي الإيقاع؟
– من الغابة
– إعزفْ أيها الزّنجي
مَن لم يسمع الجازَ
يَجهلْ عذابَك
إعزف.. واعبرْ قوسَ أرواحنا
كما أردتَ دائماً
حراً.. ومنتصراً
تملأ المكانَ..

ولا مكانَ لَك
اعزف يا أخي
وافضحْ سلاسلنا الخفيّةَ
بَدِّدْ أحلامَ السيّدِ في اصطيادِكَ ثانيةً
وتهيأْ لعبورِ اليومِ التالي دونَ قَيد
اعزف..
وأعِدْنا مِن دوارِ المدينةِ نحوَ وردتِنا

تزدحمُ القاعةُ أكثرَ
وجوهٌ أليفةٌ وجذوعٌ تتكئُ على آخر ما تبقّى من ربيعها
كأننا الحائطُ الذي لن تجتازَهُ نيويورك

– هل ينتهي الطريق؟
– لا.. ما دُمْنا نَسير
لا تتبعيني أيتها المدينة فأنا وراءكِ
لا تستديري فأنا أمامكِ
***
ما الذي سيقولُهُ الشاعرُ إذن في ظلّ ارتفاعك
غيرَ أن يقفَ واثقاً ويقرأَ قصيدتَهُ
كأنْ لم تكوني هنا ولن تكوني
ما الذي سيتركهُ في فوضى صمتِكِ الرّصاصيّ
غيرَ نارِهِ الأزلية
وخُضرةِ أصابعهِ وهيَ تُشَكّلُ الزِّلزال
ما الذي سيتركهُ على بواباتكِ الإلكترونية
أو في عُرى هوائِكِ المُصَنَّع؟
غيرَ عنادِ عبادِ الشمس
وما الذي سَيُسرّ به للبشرِ في وصيتهِ إليهم؟
غير أن يمنحَهم قصيدتَهُ
ويُرشدَهم إلى أذرعهمْ ليذرّوا الحديد

ما الذي سيقولهُ بين قصيدتين:
واحدةً عن همومِ قلبهِ الصغيرة
وواحدةً عنكِ
غير أن يرشقَ وجهَكِ بالانهيار
وما السّهمُ الذي يمكنُ أن يَرميكِ بهِ ويُصيب؟
غير أن يعودَ كما جاء:
ممتلئاً بحبّ سيّدتهِ الطَّيبة
ومدنهِ الصغيرةِ المتعَبة.
ارحلي أيتها المدينة
ولا تطأي سماءَهُ
وهؤلاء الأطفالَ المقيَّدينَ في غرفهم المدرسيّةِ بالدماءِ الباردة
ارحلي في انكسارِكِ المُتسَارع
واحملي حريتَكِ في القَتْلِ معكِ
وحريتَكِ في القيدِ معكِ
وحريتَكِ في اصطيادِ البشر كالقردةِ أو كالنمورِ.. معكِ
لأننا نقفُ الآنَ أمامكِ وجهاً لوجه
منشدينَ أغنيةَ حريَّتنا بلا خَوف:

تلكَ مساحتُكِ تتَّسع
ولكنكِ لن تكوني العالم
وذراعُكِ يَمتد
ولكنه لن يُزَنّرَ روحَنا

لن تتقدّمي في لحمنا أيتها النّصل
لن تتقدّمي في حُلْمنا أيتها الكابوس
ولن تخدعي جراحَنا بهذا الهدوء المثاليِّ
لمبنى هيئة الأمم
لن تبتلعي صرخَتنا بحنكةِ ببغاواتكِ في مجلسِ الشيوخ
ولن تطفئي شمعتَنا

بمهرجانِكِ المجنونِ ليلةَ الاستقلال!!!

U.S.A

فلتُصدقي إذن:

أن للقصيدةِ سرَّها

وللأغنيةِ سرَّها

ولعبادِ الشمسِ سِرَّه

ولحقلِ القمحِ سرَّه

ولطفلِ المظاهرةِ آلافَ الأسرار

مثلما:

للقنبلةِ العنقودية سرَّها

وللطائرةِ الخَفيّةِ التي نَراها بأَعيننا المجردةِ، سرَّها

وللقنبلةِ النووية سرَّها

وللرئيسِ وبيته الأبيض أسرار

أيها الرئيس

لا تُرهقِ الأغنيةَ بسؤالكَ عن معناها

لن تَفهم الوردَة!

لا تُرهق الريحَ بسؤالكَ عن وجهتِها

لن تَعرفَ المستقبل!

أميركا . الأردن 1990

إبـراهيم نصر الله

مواليد عمّان من أبويين فلسطينيين أقتلعا من أرضهما عام 1948

صدر له شعرًا (الطبعات الأولى):

الخيول على مشارف المدينة،1980. المطر في الداخل،82 19. الحوار الأخير قبل مقتل صفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 8419. أناشيد الصباح،84 19. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب 1989 .حطب أخضر،1991 . فضيحة الثعلب، 9319. الأعمال ـعرية– مجلد يضم تسعة دواوين، 1994.ش رفات الخريف، 9619. كتاب الموت والموتى،1997 . بسم الأم والإبن، 99 19. مرايا الملائكة،2001.

حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2009.

أحوال الجنرال، مختارات، 2011. عودة الياسمين إلى أهله سالما، مختارات، 2011

الروايات: (الطبعات الأولى):

براري الحُمّى، 1985 . الأمواج البرية، 1988 .عَوْ، 1990 . مجرد 2 فقط، 1992. حارس المدينة الضائعة، 9819.

الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):

(كل رواية مستقلة تماما عن الأخرى)

طيور الحذر، 1996، طفل الممحاة، 2000، زيتون الشوارع، 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004، زمن الخيول البيضاء، 2007– اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009.

أما ترتيبها من حيث تناولها للتسلسل الزمني للقضية الفلسطينية:

زمن الخيول البيضاء، طفل الممحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى.

الشرفات: (الطبعات الأولى):

(كل رواية مستقلة عن الأخرى)

شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، .2009 شرفة العار، 2010

كتب أُخرى (الطبعات الأولى):

هزائم المنتصرين – السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000

ديواني – شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002

السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006

صور الوجود . السينما تتأمل 2008

ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، التركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية..

أقام ثلاثة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب (فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله)- عمان، 1993

نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

جائزة عرار للشعر، 1991 .جائزة تيسير سبول للرواية، 1994

جائزة سلطان العويس للش.عر العربي،

---

[1] – جيفارا: أحد أبطال المقاومة الفلسطينة في غزة.

[2] – في التوراة، يطلب إله اليهود منهم أن يميّزوا بيوتهم بدهنها بالدّماء، حتى لا يهلكون مع من يريد إهلاكهم: (ويكون لكم الدّم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدّم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر) سفر الخروج الاصحاح 12.

[3] – مدينة أردنية في الجنوب.

[4] – الشهيدة دلال المغربي.

[5] – نهر هدسون.

[6] – فان كوخ، غوغان، مونيه، بول كلي، بيكاسو، فنانون تشكيليون!

[7] – جورج، إنسان نبيل، ليس له علاقة بجورج بوش.